سلسلة فلسفية لطلاب الجامعات والصفوف الثانوية العليا

مقدمة الأجزاء

ما هي الفلسفة؟

تأليف

جميل صليبا

١٩٤٥

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الثانية :

في عقول بني قومي فلسفة قديمة تبدو في هذا العصر ملتوية ظالمة خشنة ، فعساي بهذه السلسلة استطيع المساهمة في تهيئة الجيل الجديد إلى فهم فلسفة جديدة أكثر سهولة واستقامة وأكثر عدلا وإحسانا وأكثر صقلا وجمالا ! !

أما بعد فهذه سلسلة فلسفية أطبعها للمرة الثانية بعد مضي سنوات أربع على طبعة الأولى . وكان الزمن فرصة كافية لتهذيب أسلوبها وإضافة بعض الفصول إليها . ولم أتقيد هذه المرة ببرنامج رسمي لجامعة معينة أو وزارة معينة ، ذلك ابتغاء تعريف الفلسفة تعريفاً تاماً وإظهارها في ثوبها القشيب الكامل . وقد أفردت للتعريف كتاباً خاصاً هذا هو ، ولأجزاء الفلسفة لكل جزء كتاب بالترتيب الآتي :

(١) سلسلة الفلسفة الانتقادية (فلسفة القيم المثلى) .

الجزء الأول : موجز المنطق (فلسفة الحق) .
الجزء الثاني : موجز الأخلاق (فلسفة الخير) .
الجزء الثالث : موجز البديع (فلسفة الجمال) .

(٢) سلسلة الفلسفة الميتافيزيائية (ما وراء الطبيعة) .

الجزء الأول : موجز الطبيعيات العقلية (فلسفة المادة)
الجزء الثاني : موجز الروحيات العقلية (فلسفة الروح)
الجزء الثالث : موجز الإلهيات العقلية (فلسفة الإله)

obeikandi.com

وتسهيلاً لفهم الفلسفة ايضاً شرعت في تأليف سلسلة علمية ترافق السلسلة الفلسفية وأسميتها :

« مقدمة من العلوم لدراسة الفلسفة »

وهي بالترتيب الآتي :

(١) الجزء الأول : موجز علم النفس (ليكون مقدمة لفلسفة الحق « المنطق »).
الجزء الثاني : موجز علم الاجتماع (ليكون مقدمة لفلسفة الخير « الأخلاق »)
الجزء الثالث : موجز علم الحضارة (ليكون مقدمة لفلسفة الجمال « البديع »).

(٢) الجزء الأول : تاريخ العلوم الرياضية والطبيعية (ليكون مقدمة لفلسفة المادة).
الجزء الثاني : تاريخ العلوم النفسية والاجتماعية (ليكون مقدمة لفلسفة الروح).
الجزء الثالث : تاريخ العلوم الدينية والمذاهب (ليكون مقدمة لفلسفة الإله).

وأرجو الله أن يعطيني القوة الكافية لإتمام السلسلتين الفلسفية والعلمية خلال ست سنوات في كل سنة كتاب من هنا وكتاب من هنا . والله المستعان .

٢٠ تموز ١٩٤٥

المؤلف

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الأولى :

أما بعد فهذا كتاب في الفلسفة يبحث في المنطق والأخلاق وما وراء الطبيعة . ألفته على نحو ما يؤلف الغربيون كتبهم ، فاستقيت من مصادرهم واتبعت طرائقهم وابتغيت مواضيعهم . وأردت بذلك أن أجلب إلى العالم العربي كتاباً طريف الموضوع حديث الطريقة جديد النوع مفيداً . وقد راعيت فيه ثلاثة أمور : ١) قواعد الفكر العلمي . ٢) قواعد الوجدان المسلكي . ٣) قواعد التربية الحديثة . أما قواعد الفكر العلمي فراعيتها بعرضي المذاهب الفلسفية عرضاً تاريخياً وارتكازي في البحث والمناقشة على ما يسميه العصر الأخير بالمستندات العلمية . أما قواعد الوجدان المسلكي فراعيتها باجتنابي جعل الكتاب معرضاً لآرائي الشخصية أو إعلاناً لمبادئي الخاصة أو تمذهبي لعقيدة معينة . أما قواعد التربية الحديثة فراعيتها بإكثاري الأمثلة الايضاحية وربطي الدروس ربطاً محكماً وتركي الحشو الذي لا يجدي القارئ نفعاً . ولم أنس مراعاتي سهولة الأسلوب وإقصائي عنه كل تكلف وكل تعقيد .

٣٠ تموز ١٩٤١

المؤلف

obeikandl.com

ما هي الفلسفة ؟

الفلسفة نوع من أنواع المعرفة . فما هي المعرفة أولاً وما هي أنواعها !

١ — المعرفة مجموعة فكرية[١] « مؤلفة من إدراكات وذكريات وأحكام ومحاكمات » وبتعريف أقصر هي كما قال جوبلو[٢] « أحكام وترابط أحكام » .

٢ — ويميز عادةً بين ثلاثة أنواع للمعرفة :

١ً) المعرفة العامية .
٢ً) المعرفة العلمية (أو العلم) .
٣ً) المعرفة الفلسفية (أو الفلسفة) .

ويفيدنا هذا التمييز كما سنرى في بيان خصائص كل معرفة وبالنتيجة في تفريق المعرفة الفلسفية عن سواها من المعارف .

---

١ — هذا هو التعريف النفساني للمعرفة . وهناك تعريف آخر منطقي نمر عليه في بحوث المنطق .

٢ — (ر : جوبلو) . Goblot: Vocabulaire philosophique

obeikandl.com

المعرفة العامية

La connaissance vulgaire

١ ـ نقائصها

ليس لدينا من الوسائل العلمية ما نقوى به على دراسة « المعرفة » عند الانسان القديم ، ولكننا نستطيع أن نتصور فكرة تقريبية عن المعرفة الأولية بدراسة معرفة الطفل من جهة ومعرفة الرجل الابتدائي من جهة أخرى(١) . ويكفينا هذا التصور التقريبي لأن غايتنا من البحث أن نقرن بين الانسان قبل الدور العلمي وبينه بعد الدور العلمي ونميز الثاني على الأول بخصائص بارزة . وإذا أردنا ألا نذهب بعيداً ولا نلجأ إلى التصور والتقريب ، فها هو ذا العامي أمامنا نلاحظه عن كثب ونقرن بينه وبين العالم وندرس معرفته درساً كافياً وافياً :

يلاحظ المناطقة في المعرفة العامية النقائص الآتية :

١ ـ المعرفة العامية « لا يقينية » Incertaine أي أن صاحبها يقبل صحة القضايا بسذاجة وبدون تثبت ولا توكيد . ويتم يقينه للمرة الأولى التي يحكم فيها على الشيء حكماً أو يأخذ عنه فكرة ، ولا يمنعه مانع في المستقبل من أن يغير هذا الحكم . لذلك يسمى يقينه « يقيناً عفوياً » وهو غير اليقين العلمي الذي يدل على معنى اليقين دلالة صحيحة .

٢ ـ المعرفة العامية « جزئية » Particulière أي أنها لا تدرك من الكون إلا « أجزاء منفصلة » من الأشياء والحوادث لا يربطها رابط منطقي ولا يقيدها نظام ثابت .

٣ ـ المعرفة العامية « لا منهجية » Non méthodique أي أنها تجهل التحليل

---

١ ـ الرجل الابتدائي هو الرجل الذي يعيش في المجتمعات الابتدائية . والمجتمع الابتدائي هو واحد من مجتمعات تعيش بعيدة عن المدنية الحاضرة ومستقلة عنها كأنها في القرون الاولى (قبائل افريقية واوستراليا إلخ ..)

العميق والاستقراء المنظم وغيرها من الطرائق العلمية التي توسع دائرة المعرفة بربطها المجهول بالمعلوم . لذلك يبقى صاحبها قابعاً في دنيا محدودة الحوادث مبعثرة الأشياء على الرغم من أن الكون يمر أمامه منسجماً بكليته في كل لحظة .

٤ — المعرفة العامية « لا وضعية »[1] Non positive أي أن صاحبها لا يتقيد بوضع الواقع وتفسير حقائقه « كما هي » . بل يترك مجالاً لسيطرة إراداته ورغباته واعتقاداته وأوهامه . فكثيراً ما يرى الدنيا كما يريد أن يراها ويحكم على الأشياء كما يرغب أن يحكم . لذلك تختلف المعرفة العامية من شخص لآخر تبعاً للظروف الفردية التي تولد فيها والأغراض العملية التي تؤثر عليها .

هذه لمحة عن نقائص المعرفة العامية سنعود إلى تفصيلها في مناسبات أخرى ، أما أسباب هذه النقائص فسندرسها قريباً خلال بحثنا : خصائص العلم وخصائص العالم .

٢ — وظيفتها

المعرفة العامية رغم نقائصها تعود على الانسان بالنفع الذي لا يستهان به . وهي ان كانت جزئية بالنسبة لمعرفة العالم فانها لا تخلو من بعض التعميمات العفوية . فالعامي يعرف أن النار محرقة وأن الخشب يطفو على وجه الماء وأن الحديد يغرق فيه . وهو ينسب إلى الحديد ثقل الوزن وإلى الخشب خفته وإلى الماء خاصة الرطوبة وإلى النار قوة الاحراق وإلى الشمس قوة النور . فهذه التعميمات والتعليلات على قصرها تؤدي إلى تطبيقات عملية حيوية وإلى تنبؤات مفيدة .

أمثلة : يكفهر لون السماء فيستحضر العامي مظلته — تجري الرياح الغربية في الشتاء فيتنبأ الفلاح بمجيء الغيوم — لا تأكل العجوز الأطعمة المسببة لسوء الهضم لتكون طبيبة نفسها بمعرفتها .

---

١ — نفسر كلمة « وضعي » Positive تفسيراً موقتاً على أن نرجع إلى شرحها في الفصلين الثاني والثالث . فالمعرفة الوضعية هي « تفسير ما هو ، وما هو فقط » . ينتج عن هذا التعريف نتيجتان أساسيتان :

٢) المعرفة الوضعية لا تبحث فيما يجب أن يكون . فهي ليست انتقادية .

٣) المعرفة الوضعية لا تبحث فيما أبعد مما هو . أي ليست ميتافيزيائية .

وسوف نرى أن هاتين السمتين هما صفتا المعرفة العلمية وحدها . لأن المعرفة الفلسفية هي لا وضعية أيضاً (أي انتقادية تارة وميتافيزيائية تارة أخرى) . غير أن « لا وضعيتها » منظمة سامية مبنية على أسس عقلية متينة خلافاً للمعرفة العامية المنحطة المتداعية الأركان .

وكما أن لهذه المعرفة وظيفة حيوية فلها كذلك وظيفة نفسية لأنها تشبع ما يسمى غريزة حب الاطلاع . فالانسان يستفسر بالفطرة عما يحيطه من الأشياء ، ويلح في استفساره . وقد لاحظ جمس سولي(١) : أن الطفل لا يكاد يبلغ الثالثة من عمره حتى يتساءل ، كيف هذا ؟ ولماذا ذلك ؟

غير أنه هو والعامي يقبلان أي جواب على سؤالهما ، فليس في الواقع ما يهمهما إلا « أن يعرفا أو أن يطلعا على مجهول » . وسنرى أن هذه الرغبة في الاطلاع على المجهول هي التي أسبغت على العلم فيما بعد صفته المشهورة : المعرفة للمعرفة .

قال هربرت سبنسر : « إنك تعجب إذا رأيت في زاوية من زوايا الحقل سنابل تهتز ، إن هذا هو الحادث المجهول ، ولكنّ فلاحاً يلفت نظرك إلى مرور حيوان من هناك كالأرنب مثلاً ، فيتوقف فكرك في الحال راضياً بهذا التفسير » — أجل قد يتوقف الفكر حالاً ولكنه لا يلبث أن يعاود السؤال في أمور أخرى . وإن لم يجد أموراً أخرى ، فيعاود السؤال في الأمر نفسه من وجوه أخرى وهكذا انتقل الإنسان فيما مضى من سؤال إلى سؤال ومن جواب إلى جواب . ولما تراكمت أمامه الأجوبة مجتمعة زاد فيه العجب وبدأ ينتبه إلى أن الأجوبة في الأمر الواحد ليست واحدة . وفي عهد هذا الانتباه ظهرت طلائع العلم وحدث الانتقال من معرفة عفوية إلى معرفة تاملية .

---

١ — جمس سولي : J. Sully : Etudes sur l'enfance.

الفصل الثاني :

المعرفة العلمية

La connaissance scientifique

١ ـ خصائصها

تتجلى لنا خصائص المعرفة العلمية بدراسة خصائص العلم من جهة وخصائص العالم من جهة أخرى . أما خصائص العلم فهي بتعبير المنطق : الشروط المسببة لتكامل العلم وامتيازه . أما خصائص العالم فهي بالتعبير نفسه : الشروط المطلوب تطبيقها في صاحب المعرفة لتكون معرفته علمية .

أ) خصائص العلم

العلم معرفة منظمة مترابطة الأحكام متينة الارتباط ذات وحدة وكلية وانسجام . وبتعريف المناطقة : مجموعة من الحقائق « اليقينية الكلية المنهجية الوضعية » .

١ ـ اليقين العلمي : La certitude scientifique

اليقين العلمي أن يثق الإنسان بصحة حقيقة من الحقائق بعد براهين ثابتة وتحقيقات منظمة . فاذا كان العلم تجريبياً عرض القضية على التجربة وأعاد التجارب ونوّعها وقلبها على جميع وجوهها حتى يطرد كل شك من نفسه . وإذا كان العلم عقلياً مجرداً كالرياضيات عمد إلى الاستنتاج الصحيح وضبط الحسابات وكررها وطبق الأعم على الأخص وسار من الأخص إلى الأعم حتى يلفظ حكمه أخيراً بكل اطمئنان . وسواء أكان التحقيق تجريبياً أم عقلياً فان اليقين العلمي لا بد أن يرتكز في النهاية على أساس واحد يسمى بالبداهة . والبداهة كما عرّفها ديكارت : ان لا يقبل الإنسان شيئاً ويعتبره صواباً قبل أن يظهر له ظهوراً واضحاً جلياً بأنه كذلك » .

٢ ـ الكلية العلمية : La généralité scientifique

أ) من الجزئي إلى الكلي : قلنا إن اليقين العلمي لا يتم إلا بالتثبت من الحقيقة في تجارب متنوعة وتطبيقات متكررة ، ومعنى ذلك أن العلم يستهدف الكلي العام الذي تنطبق أحكامه على جميع الجزئيات من جنس واحد أو نوع واحد . فالرياضي مثلاً

لا يبرهن القانوني الهندسي في مثلث واحد أطواله معينة أو في مثلث قائم الزاوية أو متساوي الساقين بل يبرهنها في مثلث لا على التعيين لأنه يريد أن تنطبق نظريته على جميع أنواع المثلث ، لذلك حين يقيس ضلع المثلث بالكمية الجبرية $\sqrt{ح^{٢} + ء^{٢} - ٢ ح ء \cdot \text{جتا} ب}$ فان قياسه هذا ينطبق على جميع المثلثات وجميع أضلاع المثلث الواحد . والفيزيائي لا يستنبط قانون السقوط من سقوط حجر واحد بل يلاحظ الصخور تسقط من الجبال والماء يسقط من الشلال والثمر يسقط من الشجر والانسان يسقط من السطح . . وإذا أراد أن يقيس سرعة السقوط لا يكتفي بقياسها في مخبره وغرفته بل يقيسها في الصحراء وفوق البحر وفي خط الاستواء وفي القطبين وفي الليل والنهار وفي الهواء والخلاء . . وعالم الطب لا يدرس « الملاريا » في فرد واحد من الناس بل يدرسها في كثير من الأفراد وفي جميع أنواعهم من ذكر أو أنثى أو شيخ أو طفل أو شرقي أو غربي . . وكذلك شأن عالم النفس في دراسة « الهيجان » . قال أرسطو : « لا علم إلا بالكليات[١] » .

يستطيع العالم بعد الاطلاع على تجارب الأقدمين وإدراك ما وصلوا إليه من الكليات أن يتابع أعمالهم ويصل إلى درجة أرقى في التعميم والوحدة وكما قال باسكال : « يعتبر تعاقب الأجيال على مر العصور ، شخصاً واحداً يكتسب المعرفة دوماً ويزداد علماً[٢] » . ولما كانت المعرفة العامة مستندة إلى التجربة الشخصية فقد بقيت جزئية ، لأن التجربة الشخصية لا تدرك إلا القليل والقليل لا يستوجب التعميم ولا يستلزم القانون .

ب) من المركب إلى البسيط : لا يمكن رد الجزئي إلى كلي بدون تحليل خاصة واحدة من الجزئي تكون موضوع التعميم أو القانون أو النظرية . ففي نظرية « تساوي الزاويتين بتساوي الساقين » لا يلتفت إلى قاعدة المثلث ولا إلى درجات زواياه ولا إلى أطوال أضلاعه بل ينظر إلى خاصة واحدة هي « تساوي ساقين » ومنه « تساوي زاويتين » . وفي قانون السقوط لا يلتفت إلى لون الجسم الساقط ولا إلى تقلبه ودورانه وهو هابط ، ولا إلى الصوت الذي يحدثه بمصادمته الهواء ولكن إلى حادثة واحدة بسيطة هي حركة الجسم من الأعلى إلى الأسفل » أو « سرعة هذه الحركة » .

---

١ — أرسطو : Aristote : Métaphysique 1087 a ٥ — .

٢ — باسكال : Pascal : « Fragment d'un traité du vide. » .

ينتج معنا سبب ثان لجزئية المعرفة العامية وهو عجزها عن التحليل أو عجزها عن إرجاع المركب إلى البسيط. قال كوفيليه : « لا يخطر للمعرفة العفوية أن تقرّب بين صعود نقاعة الصابون في الهواء وبين صعود قطعة الفلين في الماء ، وقد ترى في عوم الخشب على الماء وغرق الحجر فيه حادثتين مثلما كستين[1] » . — وكذلك لا تجمع بين حادثة احتراق الخشب وحادثة التنفس ولا يخطر لها إمكان جمعها بعلاقة من العلاقات .

أما المعرفة العلمية فهي تحلل بين هاتين الحادثتين المركبتين حادثة واحدة بسيطة (اتحاد الفحم بالأوكسجين) وتجمعهما تحت عنوان واحد كلي تسميه « الاحتراق » .

٥ — من الممكن إلى الضروري : كما أن العلم يعمم « بالتحليل » . فهو كذلك يرد الممكن إلى ضروري « بالتعميم » . فاذا عمم « أن المعادن تتمدد بالحرارة فتعميمه يعني ضمناً « أن كل معدن يتمدد حتماً بالحرارة » . فالتمدد بالحرارة يسمى حادثة حتمية أو « ضرورية » . أما إذا لم يقدر على التعميم فتبقى الحادثة لديه « ممكنة » أي يمكن أن تقع ويمكن ألاّ تقع . فحادثة الموت عن الخوف حادثة ممكنة أي يمكن أن يموت الإنسان خوفاً ويمكن ألاّ يموت . وهي ممكنة لأنها جزئية ولا تصير ضرورية إلا إذا صارت كلية[2] . قال لويس ليارد ما خلاصته : « ألاحظ أجساماً مختلفة تسقط نحو الأرض في ظروف مختلفة وأمكنة مختلفة وألاحظ أنها تسقط بسرعة متناسبة طرداً مع زمن السقوط فأحكم بعد ملاحظاتي أن جميع الأجسام تسقط وتسقط بالسرعة المذكورة غير أني قبل أن أعمم لم يكن شيء يضمن لي ضرورة سقوط أي جسم كان ، وربما اعتقدت أن حجراً من الأحجار لا يسقط أو أنه يسقط ولكن بسرعة غير هذه السرعة[3] » .

إن فكرة الضرورة كما سنرى ، يعتقد بها العالم لاعتقاده بمبدأ التقيد . ومعنى

---

١ — كوفيليه : Cuvillier : Manuel de philosophie t. 2, p. 38.

٢ — على الرغم من ان هذه الحادثة تتكرر قديماً وحديثاً فلا يزال العلم صامتاً إزاءها . ووقوفه صامتاً معناه أنه لا يستطيع أن يتنبأ بموت الإنسان كلما أحاطته ظروف مخيفة . قال هنري بوانكاره : يستحيل التنبؤ بدون تعميم (Science et Hypothèse 169) . والسبب في عجز العلم هنا عن التعميم ناتج عن عجزه عن « تحليل » تفاعلات الخلية العصبية ، ولو فرضنا أنه في المستقبل استطاع أن يحلل هذه التفاعلات واستطاع أن يعين ويحدد نوعاً خاصاً من الأشخاص تأثر خلاياهم العصبية بالخوف فيموتون ، حينئذٍ يطلق عليهم اسماً جديداً ويقول : إن الخوف يميت هذا النوع من الناس ، ويميتهم حتماً . (تعميم وإرجاع الممكن إلى ضروري) .

٣ — لويس ليارد : Louis Liard : Science positive et métaphysique. p. 4 - 6.

هذا المبدأ أن الحوادث الطبيعية مقيدة بنظام ثابت ضروري تخضع له جميعها . والعالم يثق بهذا المبدأ وثوقاً تاماً بحيث لا يتردد ولا يرتاب حين يقول : « إن الحوادث الطبيعية ستقع في المستقبل كما تقع الآن وتقع الآن كما وقعت في الماضي » . وقد صحب معه هذا الاعتقاد بالتطبيق في أمرين .

١) التعليل : تقع الآن كما وقعت .

٢) التنبؤ : ستقع كما تقع الآن .

وأقرب الأمثلة على ذلك ما صنعه من المقاييس الفيزيائية (مقياس الحرارة ، مقياس الضغط ، مقياس الفولط والامبير ..) فارتفاع الزئبق في مقياس الحرارة يدل على حدوث حرارة حتماً لأن القانون العام « المعادن تتمدد بالحرارة » . وبالعكس قد تحدث الحرارة فيتنبأ بحدوث ارتفاع الزئبق حتماً لأن القانون العام « الحرارة تمدد المعادن » . وسواء « أعلل » ارتفاع الزئبق كما في الحالة الأولى أو « تنبأ » بحدوث ارتفاعه كما في الحالة الثانية فانه لا يخرج عن كونه يطبق القانون العام .

قد يتنبأ العامي (عند حلول الصيف مثلاً) بحدوث ارتفاع الزئبق في المقياس ولكن تنبؤه عفوي ينشأ عن طريق العادة لا عن طريق الاعتقاد العلمي أو التفكير المنظم ، ودليل ذلك أن خادم المخبر ، الساذج ، لا يعجب من تمدد الزئبق في مقياس الحرارة ولكنه يعجب (ولا سيما إذا كان حديث العهد بمهنته) إذا قال له رئيسه الكيماوي « ستجد بعد دقيقتين غازاً أصفر في هذه القارورة .. » . مع أن التنبؤ في الحادثتين مبني على مبدأ واحد .

قال لاشليه[1] : « القانون الطبيعي هو رد الجزئي إلى الكلي والمركب إلى البسيط والممكن الى الضروري » . إن هذا القول يلخص ما سبق ويشمله بلمحة واحدة وهو تعريف ايضاحي وأكثر من تعريف . لأنه لا ينظر إلى « القانون » كما يبدو على شكله الأخير ، بل يعرّفه كما يتشكل ويتكوّن منذ البدء . وقد ينطبق على جميع الكليات العلمية سواء كانت فكرات كلية أو قوانين عامة لذلك يقتصر المناطقة غالباً على تعريف أقصر يرون فيه القانون على وضعه الأخير ، « علاقة دائمة

---

١ — لاشليه : Lachelier : Du fondement de l'induction.

ضرورية بين حادثتين[١] » . ويسمون الحادثة الأولى سببا Cause والحادثة الثانية اثراً Effet . وبمثل هذه التسميات يصوغون تعريفهم بعبارات أخرى : القانون ربط الأثر بالسبب ، ربط المعلول بعلته إلخ .. وقديماً قال أرسطو : « العلم معرفة العلل » .

٣٠ — المنهج العلمي : Le méthode scientifique

يكتشف العلم حقائقة الكلية وقوانينه بفضل المنهج المنظم . والمناهج إما أن تكون طرائق[٢] اكتشافية وإما أن تكون طرائق تأليفية تنظيمية .

أ) طرائق الاكتشاف : تبحث عن الحقائق المجهولة من خلال الحقائق المعلومة وكما قال « برّن[٣] : تفسر المرئي المركب بالخفي البسيط » . وهي التي توسع دائرة المعرفة الانسانية وتسد الثلمات الكائنة في بعض نواحيها المفككة . وربط المجهول بالمعلوم يجري بنوعين من الطرائق ؛ إما بطرائق عقلية كما في الرياضيات (تحليل أفكار مجردة ، استنتاج ، برهان ..) . وإما بطرائق تجريبية كما في الطبيعيات (تحليل حوادث طبيعية ، استقراء تجريب ..) . وقد يجتمع النوعان من الطرائق كما في الفيزياء فيتاح للمعرفة أن تجمع الأفكار المشتتة في قوالب محكمة تشمل جميع أجزاء الحادثة وتفرعاتها بنظرة واحدة (مثال ذلك سرعة السقوط سر = $\sqrt{٢ م ج}$) .

---

١ — ويطبقون ذلك حتى على الحقائق الرياضية : تساوي ساقين (حادثة أولى) تساوي زاويتين (حادثة ثانية) علاقة تساوي الزاويتين بتساوي الساقين وضرورة التساوي بالتساوي (علاقة دائمة ضرورية) وتسمى قانوناً رياضياً أو نظرية رياضية .

ولا فرق بين هذا المثال بالنسبة لهذا التعريف والمثالين الآتيين :

١ً] حرارة (حادثة أولى) تمدد المعدن (حادثة ثانية) علاقة التمدد بالحرارة وضرورة التمدد (قانون طبيعي) .

٢ً] توقف القلب (حادثة أولى) موت الحيوان (حادثة ثانية) علاقة الموت بتوقف القلب وضرورة الموت (قانون طبيعي) .

٢ — نطلق كلمة [منهج] مرادفة إلى Méthode وكلمة [طريقة] مرادفة إلى Procédé فكلمة طريقة باصطلاحنا أعم من كلمة منهج ، لأن كل منهج هو طريقة وليست كل طريقة هي منهج . وبتعبير آخر إن المنهج هو الطريقة المنظمة المبنية على أساس ما . وقد يطلق على الطرائق الخاصة كما في قولك منهج العالم الفلاني . وعلى كل حال نميز بين كلمة منهج وبين كلمة [برنامج] التي سنعناها Programme . فنحن لا نستعمل أبداً كلمة منهج بمعنى برنامج بل بمعنى طريقة .

٣ — جان برّن : Jean Perrin : Les atomes p. 14 « 2ième édit. »

قد يلاحظ العامي « أن الجسم يسقط بسرعة تزداد شيئاً فشيئاً » وهذه نظرة كلية ، غير أنها لا تعد اكتشافاً تاماً بالنسبة للعلم لأنها معرفة كيفية . ولا نقصد بذلك أن كل معرفة كيفية لا قيمة لها علمية لأن العلم كثيراً ما يلجأ إليها حين يعجز عن القياس الكمي . والفرق بين العالم والعامي في هذه الناحية أن الأول يسعى دوماً نحو الكمي والثاني لا يهمه ذلك .

ب) أما طرائق التنظيم والتأليف : فهي تجمع الحقائق الكلية والقوانين المكتشفة وتؤلف بينها وتتجه بها نحو التعميم والوحدة . وبواسطة هذا النوع من الطرائق يتسنى للعلماء بذل جهود نافعة في ايجاد المباديء والنظريات والفرضيات التي تضم قوانين عديدة تحت عنوان واحد . مثلاً نظرية الاهتزاز التي تجمع الصوت والضوء والكهرباء بقانون واحد . وفرضية التطور التي تجمع سلاسل الحيوان بعلاقات وروابط . وعلم جرا .

٤ — الوضعية العلمية : La positivité scientifique

المعرفة الوضعية Positive تدرس « ما هو » . وبتعبير آخر تدرس « ما هو كائن » دون التعرض إلى ما يجب أن يكون ودون التوسع إلى أبعد مما هو كائن . والمعرفة الوضعية إما أن تكون اختراجية Objective وإما أن تكون انداخلية Subjective . وفي كلا الحالين تقتصر على دراسة « ما هو كائن » .

أ) فالوضعية الاختراجية : تدرس العالم الخارجي . والعالم الخارجي إنما ندركه عن طريق حواسنا الخارجية من بصر وسمع ولمس وشم . ومن السهل أن نلاحظ أن العلوم الوضعية الاختراجية التي تتناول دراسة هذا العالم الخارجي هي العلوم الرياضية والعلوم الفيزيكيائية والعلوم الطبيعية وأحياناً العلوم الاجتماعية حين تلاحظ المظاهر الاجتماعية من خارجها .

ب) أما الوضعية الانداخلية : فهي تدرس العالم الداخلي . والعالم الداخلي إنما ندركه عن طريق « الشعور » . وليس العالم الداخلي في الواقع إلا « نفس » كل فرد منا . لذلك سماه الفيلسوف (كنت) بقوله « الأنا » . وبالمقابل اعتبر « اللاأنا » هي العالم الخارجي بالنسبة لكل فرد منا . ومن السهل أن نلاحظ أن العلوم التي تتناول دراسة هذا العالم الداخلي هي علم النفس أولاً Psychologie لأن موضوع هذا العلم هو « النفس الشاعرة » . ثم علم الاجتماع ثانياً Sociologie لأن موضوع هذا العلم هو « الجماعة الشاعرة » . نقول الجماعة الشاعرة لأننا نريد بذلك الجماعة

التي يتفاهم أفرادها بعضهم مع بعض بواسطة الشعور النفسي المعبر عنه باللغة والمنطق والإشارات الاجتماعية ، أما الجماعات غير الشاعرة كالطيور والحشرات المجتمعة فقلما تكون موضوعاً لعلم الاجتماع . ولا تدخل في نطاقه إلاّ في الوقت الذي يلاحظ العلماء أن هذه الحيوانات تتفاهم بوسائل نفسيائية . أما الآن فهي في حيز موضوع علم الحياة Biologie الذي هو من العلوم الطبيعية الاختراجية .

ب) خصائص العالِم

هناك بعض الخصائص الطبيعية الفطرية التي يتمتع بها العالِم ، كقوة الذاكرة وسعة التخيل والذكاء ، لا يبحث فيها المنطق[1] ، فالمنطق يفرض أن العالم استحصل على هذه الخصائص ومارس اختصاصه « كعالم » ، فحينئذ يتدخل في أمره . وأول ما يطلب منه أن يسير محافظاً على خصائص العلم ، وبتعبير آخر أن يتصف بالصفات الفكرية والخلقية المؤدية إلى المحافظة على خصائص العلم . ويسمى مجموع هذه الصفات عادة بالفكر العلمي أو الروح العلمية Esprit scientifique .

١ — العالِم واليقين العلمي :

يبدأ العالِم بالشك وينتهي باليقين . ويبدأ بالتردد وينتهي بالعزم والجرأة . هذا هو شعار اليقين العلمي الذي تنادى به العلماء منذ ديكارت حتى كلود برنار .

أ) من الشك إلى اليقين : يشك العالِم في سواه ويشك في نفسه .

١ — أما شكه في سواه (أي من العلماء المعاصرين والسابقين) فيدفعه إلى التحقق من أحكامهم بنفسه قبل أن يبني عليها نتائج جديدة . وهو ما يفعله علماء العصرين الأخيرين في مخابرهم أو معاهدهم الاختصاصية .

حدث في علم النفس أن استند بعض علمائه إلى ملاحظات العالِم الطبيعي [فابر] في غرائز الحشرات فاستنتجوا منها فكرة كمال الغريزة . يقول [فابر] عن السفكس ذي الجناح الأصفر ، إنه حين يصطاد فريسته الجندب يقلبها على ظهرها ويطعنها طعنات ثلاث : في عنقها ، في مفصلها ، في جوفها ، بحيث يبطل حركة ارجلها الست .. ويقول عن الأموفيل ، إنه يطعن فريسته سرقة الفراشة في مراكزها العصبية ليخدرها .. غير ان العلماء المحققين لاحظوا بأنفسهم هذه الحشرات فتبين لهم ان هجوم السفكس او الأموفيل على الفريسة ليس ذلك الهجوم الجربي المنظم لأن طعناتها كثيراً ما تخبط خبط عشواء . فعدّلوا بذلك آراء القائلين في كمال الغريزة .

---

١ — على أنه يشترط بعض المزايا التي لا يمكن أن تتم بدون ذكاء العالِم وتفوقه العقلي ، فهو إن لم يطلب الذكاء مباشرة فقد طلبه باسم الفكر الصحيح الدقيق . وإن حدث في تاريخ العلوم أن كان بعض العلماء أذكى من بعض فإنه لم يحدث أن صار بليداً عالماً .

وفي تاريخ العلوم أمثلة كثيرة تدل على تورط العلماء من جراء « اعتمادهم على مجرد النقل غثاً أو ثميناً[١] » . وقد كان الناس في القرون الوسطى من هذا النقل بحيث يعتبرون أقوال الفلاسفة المشهورين حقائق ثابتة لا مجال لمناقشتها . وكان خير البراهين أن يقال « هكذا قال أرسطو ، هكذا قال الكتاب . . » . والأغرب من ذلك أن هذا المنهج المسمى بمنهج النفوذ والسلطة Méthode d'autorité كان متبعاً حتى عند الفيزيائيين في عصر ديكارت وباسكال . مما أثار احتجاج هذين الفيلسوفين وسبب إعلان الأول[٢] كلمته المشهورة « لا أقبل شيئاً واعتبره صواباً ما لم يظهر لي بوضوح أنه كذلك » . وإعلان الثاني[٣] عدم اعترافه « بغير سلطان المحاكمة والتجربة في بحوثه الفيزيائية » .

ومن قبل هذين الفيلسوفين كان أعلن ابن خلدون احتجاجه على المؤرخين الذين نقلوا الوقائع التاريخية « ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة . . — مقدمة ص ٩ » .

قال ابن خلدون : [وفي الكتاب المنسوب لأرسطو في السياسة المتداول بين الناس جزء صالح منه إلا أنه غير مستوف ولا معطي حقه من البراهين ومختلط بغيره — مقدمة ص ٣٩] ثم قال : [وأنت إذا تأملت كلامنا . . عثرت في أثنائه على تفسير . . بأوعب بيان وأوضح دليل وبرهان اطلعنا الله عليه من غير تعليم أرسطو ولا إفادة مَوْبذان — مقدمة ص ٤٠] .

ويأتي ابن خلدون بأمثلة عن مغالط المؤرخين وأوهامهم ، تشبه أمثلة العصر الأخير ، وما كان يسميه «تحكيم النظر والبصيرة» يسمى اليوم « بالفكر النقدي » Esprit critique . قال كوفيليه : « يمكن الاتيان بأمثلة عن نقص[٤] الفكر النقدي إذا ذكرنا القصص الخرافية والحوادث العجيبة . . التي أتى بها المؤرخون في العهد القديم .

---

١ — ابن خلدون : المقدمة ص ٩ . (المطبعة التجارية الكبرى بمصر) .

٢ — إن قوة لهجة ديكارت في إعلانه أوحت إلى الفنانين أن يرسموه واضعاً قدمه على كتب أرسطو إشارة لتحريره الفكر من قيود الأحكام المحاكمة . والقاعدة التي وضعها لهذا التحرير هي : [آية الحقيقة بداهة العقل] .

٣ — باسكال : Pascal : Fragment d'un traité du vide.

٤ — نقص الفكر النقدي : Insuffisance d'esprit critique « idid. 52 ».

ويمكن العثور على هذا النقص الآن في بحوث الاجتماعيين الذين يظنون أن الأشياء أي الحوادث الاجتماعية ؛ تكون كما كانت وأنها في كل مكان كما هي حولنا »

Croire que les choses ont toujour été et sont partout telles qu'elles sont autour de nous.

وفي هذا المعنى قال ابن خلدون « ربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها فيجريها لأول وهلة على ما عرف ويقيسها بما شهد وقد يكون الفرق بينهما كثيراً فيقع في مهواة من الغلط — مقدمة ص ٢٩ » .

٢ — أما شك العالم في نفسه فهي الصفة الثانية للفكر النقدي وقد كبر شأنها مع نمو العلوم التجريبية من جهة (لأن التجربة لها مسار مع المجرب نفسه) ومع نمو علم النفس من جهة أخرى (لأن الانسان استدل بهذا العلم على أنه معرَّض لخطأ الحواس والاعتقادات والأفكار السابقه وتأثير العواطف ..) . وقد أشار ابن خلدون إلى بعض منابع الخطأ ولكن عرضاً فقال : « .. وما ذلك إلاّ لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة ولا يرجعها إلى بحث وتفتيش فيرسل عنانه — مقدمه ص ١١ » .

وأول من عالج مسألة « الشك بالنفس » معالجة منظمة هو كلود برنار(١) في كتابه « مقدمة لدراسة الطب التجريبي » فقد ميز أولاً بين الريب والشك فقال : « الريبي Scéptique هو الذي لا يعتقد بالعلم ولا يعترف بأنه خاضع لقوانين ثابتة مقيدة ، مع أنه يجرؤ ويزعم — أنه قادر على الاعتقاد بنفي العلم » . ثم قال : « الشاك Douteur هو العالم الصحيح . وهو لا يشك إلاّ بنفسه وتفسيراته » خشية أن يسرع فيقع في الخطأ . فالريبي إذن ينكر كل حقيقة يمكن أن تكون موضوع العلم أما الشاك فهو يؤمن بحقائق العلم ولكنه يشك موقتاً لينحدر به الشك إلى اليقين . ويسمى شكه شكاً منهجياً Doute méthodique لأنه مبني على طرائق علمية ومباديء عقلية تجعله يعلن الحقائق بجرأة وعزم ووثوق أي بيقين ثابت .

ب) من التردد إلى العزم والجرأة : ولكنّ هذا اليقين الثابت كيف يستولي على النفس إذا لم تكن حوادث الطبيعه في الأصل ثابتة النظام ؟ . — إننا لو رجعنا إلى تاريخ الفكر البشري لرأينا هذا النوع من الشجاعة الفكرية حديث النشأة ولم يظهر إلا

١ — كلود برنار : Claude Bernare : Introducation à l'etude de la médecine espérimentale.

حين اكتشف الإنسان ثبات العلاقات الطبيعية وأسس عليه ثبات يقينه . وقد تولد عن هـذا الاكتشاف مذهب فلسفي هام أنكر على العقل مقدرته على كل حقيقة سوى الحقيقة المبنية على هذه العلاقات الثابتة . وأشهر من نادى بهذه الفلسفة المسماة بالوضعانية Positivisme هو اوجوست كونت في قانونه المسمى قانون الأحوال الثلاث Lois des trois etats وأراد به أن الفكر البشري ، خلال تطوره ، يتلائة أدوار :

١ — الحالة الإلهية : وفيها كان الإنسان يفسر الحوادث الطبيعية بارادات إلهية وتعليلات غائية ولم يكن لفكرة التقيد من أثر عنده . لذلك كان يزعم أن الآلهة تغير مجرى الحوادث تبعاً لأهوائها وكلما أرادت ، على نحو ما يفعل الانسان في أعماله الخاصة بحياته الشخصية . فهي تغضب وتنتقم وترضى ، وبحسب رضائها أو غضبها تنزل الأمطار أو تنقطع ، وتهدأ البحار أو تثور . . .

٢ — الحالة الميتافيزيائية(١) : وفيها كان الانسان يفسر الحوادث الطبيعية بخواص خفية وكيفيات افتراضية ، وكان يستهدف كوامن الأشياء وبواطنها ويلجأ في تعليلاته السببية إلى تجريدات مشخصة Abstractions personnifiées (في الخشب « خفة » وفي النور روح ضوئية أو قوة ضوئية وفي الملاج قوة شفائية وفي ثلمة القدح مركب الشيطان . .) .

٣ — الحالة الوضعية : وفيها ترك الإنسان جميع التفسيرات الباطنية والتعليلات المبنية على تصورات غائية أو تجريدات خيالية ، ولم يعد يشغل نفسه إلاّ بتفسير « الحوادث بحوادث » وبعلاقات غير قابلة التغيير أي بقوانين .

١ — نفسر كلمة الميتافيزياء تفسيراً موقتاً على أن نرجع إليها مفصلاً في الفصل الثالث . فالميتافيزياء هي الفرع الثاني للفلسفة . لأن الفلسفة إما هي فلسفة انتقادية Critique وإما هي فلسفة ميتافيزيائية Métaphysique .

فالفلسفة الميتافيزيائية وتسمى ما وراء الطبيعة هي الفلسفة التي تتناول ما وراء الحواس . فاذا كانت المعرفة العلمية الوضعية لاتتناول إلا ما تحسه بالحواس خارجاً وداخلاً ، فالمعرفة الميتافيزيائية اللاوضعية تجتاز ماهو أبعد من الحواس . مثال ذلك ابحاث الروحيات والإلهيات . ونذكر منذ الآن أن المعرفة الميتافيزيائية القديمة كانت مبنية على الخيالات والأوهام . بينما الميتافيزياء الحديثة (وكذلك الميتافيزياء القديمة عند بعض الفلاسفة كافلاطون مثلاً) هي مبنية على الحدس والاستنتاجات العقلية . وفي كلتا الحالتين تقع فيما وراء الحواس أي فيما وراء الطبيعة . والمثل العامي يقول في معرض ذكر الإله « إن الله لم نره ولكننا بالعقل عرفناه » أي بالاستنتاجات العقلية . فبحث الإله إذن بحث ميتافيزيائي .

إن قانون اوجوست كونت لا يخلو من الانتقادات التي سوف نذكرها في الفصل الثالث ولكنما يهمنا منه الآن أن المناطقة في العصرين الأخيرين استوحوا عنه قاعدةً فرضوها على العلماء ، ألا وهي « أن يكون وضعانياً » . ولا عجب في ذلك لأن الوضعية هي السبيل إلى اليقين الثابت وهي السبيل إلى الوحدة الفكرية في أفراد البشرية L'unanimité . قال بوترو[1] : « أساس الروح العلمية تأويلُ الواقع Sens du fait فالواقع هو منبع العلم وهو قاعدته وهو معيارُه » .

٢ — العالِم والكلية العلمية :

قال كلود برنار : « يجب أن نعتقد — بالعلم — الذي هو علاقة مطلقة ضرورية بين الأشياء » وقال أيضاً « العالِم هو الذي يقبل في العلوم التجريبية مبدأ تقيد الحوادث » . غير أن هذا المبدأ كيف تستطيع التجربةُ وحدَها تحقيقه ؟ إن قانون السقوط لم يجربْه العلماء في جميع أحجار الكرة الأرضية حجراً حجراً ، ولا في جميع الأجسام جسماً جسماً ، فكيف يسيغون لأنفسهم تعميمه على جميع الأحجار وجميع الأجسام ؟ وإن استطاعوا أن يجربوا قانون التمدد في جميع المعادن فكيف يجرؤون على الاعتقاد بأنها تتمدد في السنة المقبلة كما تتمدد في السنة الحالية ؟

— إن هذه الأسئلة نعالج أجوبتها فيما بعد في كتاب المنطق . وذلك في معرض البحث عن الأسس والمباديء التي يرتكز عليها العقل في الانتقال من مستوى التجربة إلى مستوى التعميم والتعليل والتنبوء . ونكتفي الآن بقولنا : لو فرضنا أن الطبيعة غيرت مرة قانوناً من قوانينها ، فهل يبقى العقل معتقداً بمبدأ التقيد ؟ كلا لا شك . فما دامت إذن الطبيعة كذلك ، فليبق العالِم مؤمناً بهذا المبدأ .

وقد ذهب بعض علماء الذرة في الأيام الأخيرة[2] إلى انكار مبدأ التقيد . وقد وضع العالِم الفيزيائي هيسنبرغ Heisnberg مبدأ سماه (عدم التثبت Uncertainty principle.) بل جرؤ وسماه أيضاً (عدم التقيد Principle of indeterm'nacy.) . والسبب في ذلك أن التجارب التي أجراها هو وزملاؤه كانت تؤدي إلى نتائج مختلفة وغير ثابتة « رغم دقة التجارب » . هكذا يقول هيسنبرغ وزملاؤه[3] ونجيبهم نحن

---

١ — بوترو : Boutroux : Science et religion p. 348.

٢ — (ر : مجلة المقتطف اكتوبر ١٩٦٠ وكتاب الفيزيقا الحديثة لأبي الخير) .

٣ — وكذلك أستاذ الكيمياء محمد أحمد الغمراوي الذي قال : [يظهر أن العلم مقبل على عهد سيضطر فيه إلى الاعتراف بإرادة من وراء هذا الكون تفعل فيه ما تشاء وعندئذ يصبح من مبادىء العلم الاعتراف =

بقولنا إنهم أسرعوا في إعلان عدم التقيد لأن احتمال الخطأ في تجاربهم العويصة أكثر من احتمال نقص الدقة في قوانين الطبيعة . ولو أن غير علماء الذرة بدأوا بانكار مبدأ التقيد لكنا أصغينا لهذا الانكار . على أننا نستطيع أن نفرض (إذا قبلنا صحة التجارب) أن الذرات خاضعة في أوضاعها وتركيبها لتغير منتظم يشبه التغير الحادث في الحركات الفلكية أو الأجسام الحية . وان استطاع الفكر البشري أن يكتشف نظام الحركات الفلكية المتغير بنظام ، لاتساع المسافات بين النجوم فلينتظر قليلاً حتى يستطيع اكتشاف مثل هذا النظام في الحركات الذرية .

٣ — العالِم والمنهج العلمي :

رأينا أن الطرائق المنهجية تربط المجهول بالمعلوم وتكتشف الحقائق الجديدة . فالعالِم إذن بمقدار ما يمهر في استعمال الطرائق يمهر في اصطياد الحقائق . قال ديكارت : « لا يكفي أن يكون لدينا فكر جيد ، بل المهم أن نستعمله جيداً » . وإن كان كلود برنار زهد في انتاجية المنهج بقوله إنه « لا يبيض ولا يلد » فانه قد اعترف بضرورته قائلاً : « إن فكرة الاختراع إذا كانت البذرةَ فالمنهج هو الأرضُ التي تمهد البذرة بالنمو والتثمير » . ثم قال : « كثيراً ما يفسد الاختراع بفساد المنهج » . فتتوارى فكراته المكتشفة في ضباب الفوضى الفكرية .

والمنهج ولا سيما في العلوم التجريبية والمعنوية ليس من الأمور السهلة التي يستطيع اجراءها أي إنسان عادي . فهو لما يحتاج اليه من إعادة وتريث طويل ودقة ، يعيل صبر العلماء ويكلفهم جهوداً شاقة . كان أغاسيس Agassis العالِم الطبيعاني يضع أمامه ٢٧٠٠٠ قوقعة (من جنس النهرتينا Nérétina) ليظفر برؤية اثنتين منها متماثلتين بدون أقل فرق . وكان باستور يقضي أياماً بل سنين ليتأكد من واحد من اكتشافاته في الاختمارات . ومن خطاب له ألقاه في حفلة تدشين معهده قول ينطبق تماماً مع حياته الشخصية ، قال « تستولي على العالِم حمى حين يهتدي إلى

= بالله سبحانه . إن هذا الرأي ميتافيزيائي ونجيب عليه بجواب ميتافيزيائي . نقول للأستاذ الفهراوي إن اعتقادنا بمبدأ التقيد الآن لا يمنع الاعتراف بإرادة الإله بل يؤدي إليه ، لأن التفكير الذي يتوصل إلى إثبات وجود الإله هذا التفكير نفسه ، يعترف بأن نظام الإله ثابت ، وبتعبير آخر إن ثبات النظام ، باعتراف هذا التفكير ، يدل على الكمال . ألا نذكر كيف حطّم الفكر البشري « كنت » لأنه استطاع أن ينظم حياته بثبات ؟ إن الفكر البشري رفع الفيلسوف « كنت » فوق مستوى البشر لثبات نظامه فالأجدر به أن يقول إن الإله وضع خطته الثابتة ولن تتغير .

حدث علمي هام ، ويود لو يستطيع إعلانه حالا ، ولكنه يقاوم نفسه أياماً وأياماً بل سنين وسنين ليهدم تجاربه ويبنيها من جديد ويطرد جميع الفرضيات المعاكسة » .

ومنهج العلوم المعنوية أشد صعوبة ويحتاج إلى حزم وجلد بحيث لا يبقى في ميدان هذه العلوم إلاّ نفر قليل من عظماء الإرادة (البحث في المستندات التاريخية ، مراجعة الكتب التي لا تحصى عداً ، من أجل تحقيق رأي واحد أو كلمة واحدة . . .) قال جوبلو(١) : « من الناس وهم ضعفاء الأذهان من يخشى التعب ويرجح ألاّ يعلم على أن يعلم وألاّ يفهم على أن يفهم » . إن العلماء أبعد عن هؤلاء الناس وهم في الواقع غير هذه المخلوقات .

والأسمى من ذلك أنهم لا يرجون من وراء اتعابهم غاية أو غرضاً سوى « حب الحقيقة » وحب العلم للعلم . وقد تحققت اللاغرضية في الروح العلمية قبل أن يعلن المنطق « أن الغرض يفسد الاستنتاج ويبتر الاستقراء » ولم يقل الفيلسوف ملهو Milhaud « إن العلم يتقدم طرداً مع لاغرضيته » إلاّ بايحاء تاريخ الفكر اليوناني .

تفسد المحاكمة العلمية عند المفترض العملي لأن اغتراضه يلهيه عن الاحاطة بالشيء إحاطة دائرية فهو لا ينتبه إلا إلى ناحية واحدة منه تتعلق بغرضه المقصود . وهذا يجعل استقراءه ناقصاً وتحليله قاصراً .

ومن الأمثلة الجميلة في ذكر اللاغرضية العلمية : أن هرتز الفيزياني الألماني سألوه مرة هل يمكن الاستفادة من اكتشافه الموجات الكهرطيسية في المخابرات الهاتفية ؟ فأجاب نافياً . وعلى منواله كان اليونانيون « محبو الحكمة » الذين تركوا لنا تراثاً عظيما من القوانين الرياضية والفيزيائية .

وكما أن الروح العلمية تبتعد عن الأغراض العملية فهي تقتضي أيضاً عن كل عاطفة قومية أو دينية أو شخصية . وارضاء العواطف والاعتقادات على حساب الحقائق العلمية شيء تجهله وتبرأ منه ولا يعرفه إلا الزعماء والسياسيون وأمثالهم .

٤ — العالِم والوضعية العلمية :

قلنا إن الوضعية Positivité هي الاقتصار على دراسة « ما هو » دون التعرض إلى « ما يجب » ودون التوسع إلى « أبعد مما هو » . ينتج عن هاتين الوصيتين شروط ينبغي أن يراعيها العالِم احتراماً للوضعانية Positivisme أي احتراماً للمبدأ الوضعي .

١ — جوبلو : Goblot ; Traité de logique. p. 377.

أ) ففي وضعيته الاختراجية : ينبغي أن يحصر انتباهه في ما يدركه عن طريق حواسه سواء كان الإدراك مباشراً أو بالأداة المخبرية . ومن مقتضيات حصر الانتباه نسيان الأغراض كما رأينا وقهر العاطفة . مما يؤدي إلى توحد النتائج العلمية لدى جميع المفكرين . قال شالهي[1] : « إذا تخلت المعرفة عن كل مؤثر فردي وكان البرهان صحيحاً فهي تفرض قبول معانيها فرضاً على جميع العقول . والعلم إذا كان عند الانسان الواحد يحقق توافق الفكرات وانسجامها فهو عند المجتمع البشري يحقق توافق الأفكار ويسبب ماسماه اوجوست كونت بالتلاقي الفكري La convergence mentale ».

والحق ، ألسنا نرى القوانين الرياضية والفيزيائية مفهومة ومقبولة قبولاً عالمياً ؟ وهل حدث في التاريخ أن رفض إنسان نظرية فيثاغورس أو مبدأ أرخميدس أو شك بها ؟ إن العلم كلما استطاعت أن تؤثر فيه الأغراض والعواطف ابتعد عن الواقع وأخل بقاعدة الوضعية الاختراجية . وقد بقيت العلوم المعنوية إلى وقت متأخر تجهل الوضعانية للسبب نفسه . فقد كان يعالج مسائل علمي النفس والاجتماع أخلاقيون ومصلحون . والأخلاقي ما كان يدرس الهيجان مثلاً كحادثة نفسيائية لها مظاهرُها الفزلجائية وآثارُها الفكرية وعلاقاتها بالفاعلية . . بل كان يرى فيها « مفتاحاً لكل شر » فيصفها وصفاً شعرياً هجائياً ويتحرى أسبابها أو بعض أسبابها على الأصح المنتشرة في زمانه ، لينصح الناس باجتنابها ، والمصلحُ ما كان يدرس وظيفة المرأة في المجتمع كحادثة اجتماعيائية تطورت مع تطور الزمن وتطور الأسباب ، بل كان يدرسها في مجتمعه فقط ويسجل نقائصها تبعاً لتفكيره الشخصي واعتقاداته القومية أو الدينية . ومن هنا نشأ اختلاف الأنظار في البحوث النفسية والاجتماعية .

ينتج أن للاختراجية[2] Objectivité معنيين : المعنى الأول كمنهج للبحث خارجي . المعنى الثاني كاشتراط لعدم تدخل الغرض والعاطفة . ونلاحظ بسهولة أن المعنى الثاني نتيجة للمعنى الأول ومن ضروراته .

---

١ ـ شالهي : Challaye : Philosophie scientifique p. 50

٢ ـ كنا ترجمنا لفظ Objectivité في الطبعة الأولى من الكتاب بلفظ [موضوعية] جرياً مع سائر المؤلفين المحدثين . إلا أننا وجدنا أن لفظ [اختراجية] أضبط ترجمة من حيث الاشتقاق اللغوي وأعنى أداءً من حيث التعبير الفلسفي (راجع للاستزادة : المفردات الفلسفية) . وبهذه المناسبة نقول إن بعض المؤلفين يترجم لفظ Subjectivité بلفظ ذاتية . وهذا غلط يخالف المعنى الذي قصده الفلاسفة العرب من قولهم ذاتي Essentiel الذي عكسه عرضي Accidentel . لذلك ترجمنا Subjectivité بقولنا اندخالية .

ب) وفي وضعيته الاندخالية : ينبغي أن يحصر انتباهه في ما يدركه بشعوره . وهو الحس الداخلي الذي يدرس « ما هو كائن داخلاً » . فاحترام الوضعانية حاصل هنا إلا أن الاندخالية لا تنتج نتائج الاختراجية تماماً . فعلم النفس لا يزال يشعر بموضع ضعف من حيث عدم توحد النتائج . لأن الحوادث النفسية لا يدركها إلاّ صاحبها . فشعوري بفرحي مثلاً يوم نجاحي بالفحص لا يشعر به مباشرة إلاّ أنا وقد يتصوره رفيقي الناجح معي ولكنه يتصوره على منوال فرحه . مع هـذا فان علم النفس في الوقت الحاضر يحـاول الاستعانة بالوضعية الاختراجية ليعدل من مساوىء الوضعية الاندخالية . وابتعاده عن تدخل الأغراض وسيطرة العواطف يخفف كثيراً من هذه المساوىء كما ذكرنا .

وما يقال عن علم النفس يقال عن علم الاجتماع . وقد نجح علم الاجتماع نجاحاً أسرع لأن الحوادث الاجتماعية يمكن ملاحظتها كأشياء . قال دوركهايم[1] ما خلاصته : « إننا نعيش داخل الحوادث الاجتماعية نبيع ونشتري ونستخدم القواعد الحقوقيـة والأخلاقية ولا نعرفها معرفة علمية . لذلك ينبغي أن ننظر إلى هذه الحوادث كأشياء ومهما كانت مألوفة لدينا ينبغي أن ننظر اليها غريبةً عنـا كما ننظر إلى الحوادث الطبيعية ، والشيء في تعريفنا هو غير الفكرة لأن الفكرة ندركها إدراكاً داخلياً والشيء ندركه إدراكاً خارجاً » .

وهناك خطر آخر تجره وراءها الاندخالية في علم النفس بل في علم الاجـتماع أيضاً . ألا وهو انزلاق التفكير من نطاق « ما هو كائن » إلى نطاق ما وراء الطبيعة أي إلى عالم الأرواح والآلهة حيث يطير الفكر فوق سحب الأوهـام والخيالات . لذلك بقي علماء النفس والاجتماع مدة طويلة مرتدين رداء الميتافيزياء ولا يزالان حتى الآن ولا سيما علم النفس في أكثر نواحيه . أما باقي النواحي فقـد استطاع العلماء بمحاولات مشكورة أن يفرقوا بين « ما هو كائن داخلاً » وطريقه الشعور النفسيائي ، وبين « ما هو أبعد من ذلك » وطريقه الحدس الميتافيزيائي والاستنتاج المجرد .

يتضح أن للاندخالية معنيين : المعنى الأول كمنهج للبحث داخلي . المعنى الثاني تسرب الغرض والعاطفة . ونلاحظ بسهولة أن هذا التسرب ناتج عن ضعف المنهج الداخلي . ويعالج هذا الضعف بمناهج اختراجية .

---

١ ــ دوركهايم :

Durkheim : Règles de la méthode sociologique.

وخلاصة القول يتحلى العالم بنوعين من الخصائص :

١) خصائص فكرية مهمتها : المقدرة على التفكير الصحيح ، الدقيق ذي اليقين الثابت ، الوضعي ، الموحد .

٢) خصائص خلقية مهمتها : مقاومة الأثرة البشرية التي تريد استثمار العلم لغايات عملية أو عاطفية .

ومجموع هذه الخصائص يكوّن ما يسمى بالروح العلمية أو الفكر العلمي : Esprit scientifique .

٢ — وظيفة المعرفة العلمية

« العلم للعلم » يؤدي وظيفة نفسية تتلخص في أمرين : أولهما تلبية حاجة الاستفسار في الانسان وثانيهما تلبية محبته للتنبوء . وقد تشترك المعرفة العامية مع العلمية في تلبية الحاجة الأولى ولكن المعرفة العلمية تتعمق بالاستفسار وتتسع بالتعميم فيزداد الانسان لذة وسروراً . ألسنا نشعر بلذة عظمى حين ندري أن الصوت والضوء كليهما حركة اهتزازية ؟ أو ان الاحتراق والتنفس كليهما احتراق ؟ إن اعتقادنا بمبدأ التقيد هو نفسه لذة في ذاتها . وكذلك الأمر في التنبوء فلسنا أقل سروراً حين نسبق بمعرفتنا الحوادث (كالخسوف والكسوف مثلاً) منا حين نعلل الحرارة الحيوانية باتحاد الاكسجين في الفحم أو حين نقول إن الانسان كتلة فحمية ممزوجة ببعض المواد المعدنية وشبه المعدنية .

و « العلم للعلم » يخرج عن دائرة العلماء لينقلب إلى « علم للعمل » في دائرة المطبقين الفنيين . قال اوجوست كونت : « علمٌ فتنبوءٌ فعملٌ[1] » . فلا يكاد العلماء يكتشفون قانوناً من القوانين حتى يهرع اليه الفنيون ليطبقوه في كثير من نواحي الحياة العملية . ألا ترى كيف انتشرت السفن والغواصات والمناطيد والمظلات بعد ان سجل العلم مبدأ ارخميدس وعممه في السوائل والغازات ؟ ألا ترى كيف شاع استعمال الكهرباء في نقل الأصوات البعيدة والنور والحرارة بعد أن سجل العلم قوانين الكهرطيسية والحركة الاهتزازية ؟

ثم الا ترى أيضاً كيف استطاع الفلاح الصهيوني في فلسطين أن يستدر من البقرة حليباً يعادل أضعاف الحليب الذي يستدره الفلاح العربي من البقرة نفسها ؟ ان الانسان كما قال بيكون « يقدر ما يعرف » وهو بعلمه يصرف جهداً أقل ووقتاً أقصر وينال انتاجاً أعظم ومالاً أوفر .

---

١ — اوجوست كونت : A. Comte : Cours de phil. positive - 21ème leçon.

وقول بيكون هذا ينطبق على الحوادث الاجتماعية كما ينطبق على الحوادث الطبيعية . فبعض الأمم التي تبني كل حركة من حركاتها على أسس علمية تستطيع أن تقدر على الضبط متى يتم ظفرها على الأعداء وكم يوماً تستمر حربها . وقد تبلغ بها المقدرة على التنبوء في الحوادث الاجتماعية أحياناً ، درجة أعلى منها في الحوادث الطبيعية . فتحدد مثلاً اليوم والساعة التي يتم فيها الظفر ودخول مدينة معينة . مع أنها لا تستطيع تحديد يوم الطوفان وساعته في نهر من الأنهار التي تطوف في بلادها كل سنة .

على أننا لا نستطيع أن نقبل قول بيكون بدون تحفظ . ونحن ذاكرون قول كاود برنار في هذا الصدد « نقدر اكثر مما نعرف » . لنناقش القولين كما يلي :

١) قد يقدر الانسان أحياناً بمقدار ما يعرف كما هي الحال في استخدام مبدأ ارخميدس .

٢) قد يقدر الانسان أحياناً أكثر مما يعرف كما هي الحال في استخدام الكهرباء لأن استفادته منها لا تتناسب مع معرفته عنها التي لا تزال ناقصة .

٣) قد يعرف كثيراً في أغلب الاحايين ولكنه يعمل قليلاً وقد لا يعمل شيئاً ، كما هي الحال في معرفته ببعض الأمراض الفتاكة ومعرفته بحدوث الزلازل قبل وقوعها . ففي الأمراض الفتاكة يعرف بدقة أسباب المرض ونوع جراثيمه ويراها في المجهر ولكنه لا يقدر على إزالتها ، ومعلوماته عن الزلازل أعمق من معلوماته عن الجراثيم ولكنه لا يستطيع أن يمنع حدوثها . فمقدرة الانسان إذن محدودة في مثل هذه الظروف .

مع ذلك لا يمنعه هذا التحديد من أن يعد نفسه سعيداً بما توصل إليه من « مقدرة على الطبيعة » في أمور أخرى كثيرة ، وهو لا يزال يزداد قوة وسلطاناً .

تمارين فلسفية

على الفصلين الأول والثاني

١ — تاملات ومناقشات :

١ — ماذا توحي إليك هذه المقارنة : «الشمس بنظر العامي نور يتلألأ أو نار تلظى وهي في نظر الفلكي كتلة صخرية لها أبعادها وتركيبها الكيميائي وتركيبها الارضيائي وصفاتها الفيزيائية » .

٢ — إن الخبرة الطويلة في الحياة العملية (سواء صناعياً أو اجتماعياً) تكسب الانسان أحكاماً تشبه الأحكام التي يتوصل اليها الباحث العلمي مع فرق صغير . ابحث عن هذا الفرق ؛ أي الفرق بين الحكم

الاختباري والقانون العلمي ؟ — للاجابة على هذا السؤال راجع ص ٨ ثم الفقرات بالحروف الصغيرة من الصفحة ١١ وما بعدها حتى الصفحة ١٥ .

٣ — هل معرفة العالم بغير دائرة اختصاصه معرفة علمية ؟ ما الفرق بينها وبين المعرفة العامية ؟ ما الفرق بينها وبين المعرفة العلمية ؟

٤ — كيف تجمع بين سقوط الأجسام إلى الأرض وصعودها في الهواء وبقائها سابحة فيه بقانون واحد ؟ — ضع هذا القانون بتعبير علمي .

٥ — في الصفوف الأولى من المدرسة الثانوية تدرس نظرية فيثاغورس ومبدأ ارخيدس (بحوث القرنين السادس والثالث قبل الميلاد) . وفي الصفوف الأخيرة تدرس قوانين الكهرباء والهندسة التحليلية والجبر التفاضلي .. (بحوث القرون الأخيرة) . أ) ماذا تستنتج من ذلك ؟ ب) إذا قيل إن الطفل يولد عامياً فبأى معنى تستطيع أن تقول إن البشرية تزيل منه العاميه بعملية منظمة — صف هذه العملية ، سرعتها ، ايجازها ...

٦ — إذا عرّفت الصدق بمعناه الواسع هل تستطيع أن تقول إن الروح العلمية هي الصدق ؟

٧ — تدل الاحصاءات على أن الوفيات (ولا سيما وفيات الأطفال) تزداد مع جهل الأمة وتنقص مع تفوقها العلمي . هل تستطيع بالاستناد إلى ذلك ان تقول إن الانسان بالعلم يتغلب على الموت ؟ كيف يمكنك في هذا المثال أن تبين أهمية العلم من جهة وتحدد وظيفته من جهة أخرى ؟

٢ — دراسات ومحاضرات :

١ — الفكر النقدي عند ابن خلدون .

٢ — الفكر الوضعي عند اوجوست كونت — مناقشته .

٣ — متى وكيف تسربت الاختراجية إلى علمي النفس والاجتماع .

٤ — تعليقات على رسائل اخوان الصفا ، منهجها ، اختراجيتها .. ناحية العلوم فقط .

٥ — تاريخ اللاغرضية — أمثلة من تاريخ فلاسفة اليونان ، فقهاء الاسلام ، علماء أوروبا — .

obeikandl.com

الفصل الثالث :

المعرفة الفلسفية

١ - خصائصها

تتجلى لنا خصائص المعرفة الفلسفية ، كما هي الحال في المعرفة العلمية ، بدراسة خصائص الفلسفة من جهة وخصائص الفيلسوف من جهة أخرى . غير أن هـذه الخصائص ليست من الوضوح والثبات بحيث يستطيع المناطقة تحديدها كما فعلوا في العلم ، لأن موضوع الفلسفة معقد ومتنوع . مع ذلك فسوف نحاول تحديدها وإيضاحها بمنهج تربوي إيضاحاً كافياً ذا نتيجة مرضية .

أ) خصائص الفلسفة

الفلسفة في هذا العصر كالعلم من حيث هي معرفة منظمة مترابطة ذات وحدة وكلية ، بل هي في فرعها الميتافيزيائي أكثر وحدة وتعميماً . ويمكننا تعريفها على منوال التعريف المنطقي للعلم بقولنا : الفلسفة مجموعة من النظريات(١) اليقينية الكلية المنهجية . غير أن يقينها وكليتها ومنهجها كل ذلك مطبوع بطابع خاص يختلف عما رأيناه في العلم ويختلف حتى في أقسام الفلسفة بعضها عن بعض . ولولا أن هذه الأقسام يمكن جمعها في فرعين أصليين يشمل كل منهما خصائص واحدة أو متشابهة على الأقل ، لصعب علينا رسم هذا الطابع رسماً دقيقاً كما سنفعل . وقد تطول بنا دراسة الفرعين واحداً بعد آخر ، ومقارنة كل فرع مع العلم ، ولكنّ ذلك يعطينا في النهاية فكرة تامة واضحة عن خصائص الفلسفة بمجموعها .

ونقول منذ الآن إن الفرق الأساسي بين العلم والفلسفة هو أن ذاك وضعي وهذه لا وضعية . وهـذا الاختلاف هو الذي يخل بتوازن الخصائص الأخرى المشتركة كما سنرى .

---

١ — هناك فرق بين النظرية الرياضية Théorème وبين النظرية الفلسفية Théorie philosophique فالأولى حكمها في المنطق حكم القانون الطبيعي أما الثانية فهي عبارة عن نتائج يستخرجها الفيلسوف من مبدأ يقبله قبولاً أو يعتقد به اعتقاداً .

obeikandl.com

الفرع الأول : الفلسفة الانتقادية :

أ) المسألة المنطقية (أو المنطق) : تنتقد هذه المسألة طرائق التفكير في الانسان وتميز صحيحها الذي يقود الفكر إلى الحقيقة عن خاطئها الذي يحيد بالفكر عنها . وهي بتعبير آخر تعين شروط التفكير الصحيح أو شروط الحقيقة . لذلك تختلف عن علم النفس من هذه الناحية ، لأن علم النفس يدرس طرائق التفكير « كما هي » وعند كل ذي فكر سواء كان طفلاً أو عامياً أو عالماً .. بينما المنطق يدرسها « كما يجب أن تكون » أي عند العالِم وعند الفيلسوف بما فيه المنطقي نفسه .

تؤدي المسألة المنطقية إلى مسألة انتقادية أكثر تعمقاً تسمى [مسألة انتقاد المعرفة] . فهذه المسألة تسأل المنطقي : هل الحقيقة التي يزعم أنه يتوصل إليها بتفكيره الصحيح ، هي حقيقة حقاً ؟ قال هانري بوانكاره[1] : [إن علم الفلك خير ماعلمنا على ازدراء المظاهر الخارجية . فمنذ اليوم الذي اثبت فيه كوبرنيق أن ما كنا نحسبه ثابتاً هو في الواقع متحرك ، وما كنا نحسبه متحركاً هو في الواقع ثابت ، أظهر لنا كيف تستطيع أن تخدعنا المحاكمات الصبيانية التي تعتمد مباشرة على الحواس] . فالمسألة الانتقادية تلاحظ أن العقل يحسب أنه صائب وهو مخطئ ، فتتساءل إذن ما هو شأن التفكير الصحيح في الوصول إلى الحقيقة ؟ وما هي قيمة العلم ؟ وما هي قيمة المعرفة البشرية ؟

ب) المسألة الأخلاقية (أو الأخلاق) : تنتقد هذه المسألة سلوك الإنسان وأعماله لتميز طيبها الذي يؤدي إلى الخير عن سيئها الذي يؤدي إلى الشر . فهي إذن كالمنطق من حيث أنها تعين شروط الوصول إلى الخير وتدرس « كيف يجب أن يكون السلوك البشري » للوصول إلى الخير . وقد رأينا الفرق بينها وبين علمي النفس والاجتماع في مناسبات سابقة .

تؤدي المسألة الأخلاقية إلى مسألة انتقادية أكثر تعمقاً ، فتسأل الأخلاقيين هل هناك خير حقاً ؟ هل هناك خير مطلق ؟ إن تاريخ الأخلاق البشرية يدلنا على أن ما سمي خيراً كالانتحار ووأد البنات والإحسان نفسه ، سمي في أحوال أخرى شراً . ولا يزال في كل مجتمع مفهوم للخير يختلف عن مفهوم المجتمع الآخر . فأي خير هو الخير .

---

١ — هنري بوانكاره : Henri Poincaré : La valeur de la science, p. 16.

حـ) المسألة البديعية[1] (أو البديع) : تنتقد هذه المسألة أعمال الانسان الفنية والأشياء التي تؤثر على شعوره بما يسمي بعضها جميلاً وبعضها قبيحاً . وهي كالمنطق والأخلاق من حيث أنها تعين شروط الجمال وتدرس « كيف يجب أن يكون الشيء » حتى يكون جميلاً وتختلف عن العلم أيضاً بما يختلفان هما عنه ، فالفيزياء مثلاً تدرس اللون « كما هو » وتعين في كل لون طول موجته . بينما البديع يدرس في اللون شروط جماله ، فمتى يكون اللون الأحمر جميلاً وفي أي موضع ، ومتى يتراءى الانسان قبيحاً وكيف يجب أن يكون حتى لا يتراءى كذلك ؟

تؤدي المسألة البديعية إلى مسألة انتقادية أكثر تعمقاً ، فتسأل البديعي هل هناك جمال حقاً ؟ هل هناك جمال مطلق أم نسبي ؟ إن تاريخ الفنون الجميلة يدلنا على أن ما سمي جميلاً ، كالوشم مثلاً ، سمي في أحوال أخرى قبيحاً ، وما يسمى الآن جمالاً في بلاد قد تستنكره بلاد أخرى فأي جمال هو الجمال ؟

ينتج مما سبق أن الفلسفة الانتقادية تدرس ثلاث قيم أساسية « الحقيقة والخير والجمال » . قال دوركهايم : « حين نقول إن الأجسام متثاقلة وإن حجم الغاز يتناسب عكساً مع الضغط الواقع عليه نكون قد صغنا أحكام وجود Jugements d'existence غير أن هناك أحكاماً ليس موضوعها دراسة الأشياء كما هي بل تقدير قيم لها من قبل شخص يشعر ويفكر وتسمى أحكام قيم Jugements de valeur » .

فالفلسفة الانتقادية فلسفة قيم . وهي فلسفة قيم لأنها تنتقد وتميز فتعترف بأشياء وتنكر أشياء . فالمنطق مثلاً لا يعترف إلاّ بنوع خاص من طرائق التفكير ، الطرائق الصائبة ، التي هي لها القيمة المنطقية . وكذلك شأن الأخلاق في الأعمال الحسنة التي لها القيمة الأخلاقية والبديع في المؤثرات الجميلة ذات القيمة البديعية .

وينتج عن اتصاف الفلسفة الانتقادية بأنها فلسفة قيم نتيجتان هامتان : ١ً) الفلسفة الانتقادية هي فلسفة المثل العليا لأنها بانتقادها الحسن والسيء تبين ما هو الأفضل . ٢ً) الفلسفة الانتقادية هي فلسفة قاعدية Normative لأنها بعد أن تهتدي إلى

---

١ — استعمل المؤلفون العرب لفظ « بديع » بالمعنى الخاص بفلسفة جمال الألفاظ ومعانيها . أما نحن فنعمم معنى هذا اللفظ فنطلقه على فلسفة جميع أنواع الجمال فيكون مرادفاً إلى الاصطلاح الأجنبي Esthétique .

المثل الأعلى تطالب بتطبيقه أي تضع « قاعدة » تقول ينبغي استهدافه ، وهذا معنى قولنا « يجب أن يكون » الذي ميزناه عن قولنا « ما هو كائن » .

الفرع الثاني : الفلسفة الميتافيزيائية :

رأينا أن مسألة انتقاد المعرفة تبدأ بالسؤال الآتي : « هل الحقيقة التي يصل إليها العقل البشري ، هي حقيقة حقاً ؟ فهذا السؤال يقودها إلى الأسئلة الآتية : ما هي فكرة الحقيقة ؟ هل هذا العالم الخارجي موجود حقاً أم أننا نشعر بوجوده على نحو ما نشعر في أحلامنا بموجودات غير حقيقية ؟ إذا كان موجوداً فهل نراه على حقيقته أم نراه كما ترتسم المناظر على المرآة المقعرة أو المحدبة ؟ ما هي طبيعة المكان وما هي طبيعة الزمان ؟ وتتلخص هذه الأسئلة كلها(١) بسؤال واحد : ما هي « علاقة الأنا باللا أنا » ؟ أي علاقة النفس بما يحيطها ؟

فمسألة انتقاد المعرفة هي حلقة الوصل بين الفلسفة الانتقادية والفلسفة الميتافيزيائية . لذلك يعتبرها أكثر المؤلفين كمقدمة لدراسة الميتافيزياء . وبتعبير آخر هي « باب ما وراء الطبيعة » . فاذا فتحنا هذا الباب ودخلنا ماذا عسانا نواجه من المسائل التي تثير تفكيرنا ؟

أ) الطبيعيات العقلية : وأهم مسائلها : إذا ثبت لدينا أن العالم الخارجي موجود ،

---

١ — لا شك أن الأسئلة أوردناها مرتدية رداءها المنطقي . وها نحن أولاء نوردها مرة ثانية وثالثة مرتدية رداءها الأخلاق ثم البديعي :

— هل هناك خير مطلق ؟ هل للخير معنى مستقل عن الإنسان أم هو منه بحيث إذا فني من الكون زال هذا المعنى من الوجود ؟ إذا كان هذا المعنى متعلقاً بوجوده فأي الذي تتفق العقول البشرية على تسميته خيراً ؟ إذا كان مستقلاً عنه ، فما هو طبيعته ولماذا يتراءى مختلفاً باختلاف العقول ؟

— هل هناك جمال مطلق ؟ هل الجمال حقيقة مستقلة عن الإنسان أم هي منه بحيث إذا فني ، فني كل جمال في الكون ؟ إلخ ..

ونذكر بهذا الصدد أن بعض الفلاسفة يعتقدون أن الخير والجمال وجميع الفكرات العامة (أو المثل كما يسميها أفلاطون) لها وجود في ذاتها ومستقلة في عالمها . وهناك فلاسفة آخرون يقولون بالنسبية ويجعلون الإنسان مركز الكون .. مما سوف ندرسه في « سلسلة الفلسفة الميتافيزيائية » تصدر في المستقبل .

فما هي طبيعته ؟ وعن هـذا السؤال يتفرع نوعان من الاسئلة تبعاً لتقسيم الكائنات إلى جوامد وأحياء :

١ — ما هي حقيقة المادة وما هو قوامها الداخلي ؟ إذا كانت تنحل إلى ذرات فما هي حقيقة الذرة ؟ وإن كانت تنحل إلى قوى فمـا هي حقيقة القوة وكيف تبرز على الشكل المادي ؟

٢ — ما هي حقيقة الحيـاة وما هو منشأ الفرق بين الحي والجامد ؟ هل الحي مجموعة حوادث فيزيكمائية أم هو من نوع آخر ؟ إن كان في الأمر نوع آخر فما هي طبيعته ؟

ب) الروحيات العقلية : وأهم مسائلها : ١ — إذا كان جسم الانسان مادة فمن أين لها أن تشعر وتعقل ؟ وإن كان لهذا الجسم روح فما هي حقيقتها وما هي علاقتها بالجسد ؟ هل هي مستقلة عنه لا مادية أم هي من الدماغ أشبه بعصارة الصفراء من الكبد ؟

٢ — إذا مات الجسد هل تموت روحه معه أم تبقى خالدة ؟ وإن بقيت خالدة فأين مكانها من الكون وما عملها فيه بعد موت الجسد ؟

ج) الإلهيات العقلية : وأهم مسائلها : ١ — هذا الكون بنوعيه المـادي والروحي هل وجد بنفسه ؟ إن كان لا بد له من موجد فمن هو واجب الوجود ومن هو السبب الأول لكل سبب ؟ لماذا وجد الكون وما هي غايات وجوده ؟ إن كان له غايات فما هي غاية هذه الغايات ؟

٢ — إذا كان السبب والغاية هما الإله فما هي طبيعته وما هي صفاته وما هي علاقته بمخلوقاته ؟

ينتج مما سبق أن الميتافيزياء تدرس الكون « كما هو » لتؤلف « أحكام وجود » على نحو ما يفعل العلم . ولكنها : ١) لا تقتصر على محسوسات الأشياء وظاهراتها الخارجية بل تتعمق لتدرس الكائن بذاته L'être en soi . ٢) لا تقتصر على العلل والأسباب المباشرة كالعلم بل تتعمق لتدرس الأسباب الأولى والغايات النهائية .

١) يحلل العلم الماء إلى اكسجين وهدروجين . ولكن الميتافيزياء تتعمق في التحليل لتعرف القوام الداخلي لكل من الاكسجين والهدروجين ، والجوهر الأساسي الذي تنحل اليه جميع المواد بل وطبيعة هذا الجوهر نفسه . ويقول العلم إن الحي يعيش بالغذاء ولكن الميتافيزياء تتعمق لتعرف حقيقة هذا التحول الذي تنقلب فيه المادة إلى قوة وحركة ثم إلى شعور وعقل .

٢) يعلل العلم المطر بتبخر المياه من البحر وجريان البخار بتأثير الرياح .. ولكن الميتافيزياء تتعمق في التحليل لتعرف ما هو سبب هذه الأسباب . وبتعبير آخر من الذي نظم هذه السلسلة من الحوادث وجعلها ثابتة العلاقات ؟ (وهنا يصل الإنسان إلى البحث عن علة العلل) . ويتطرق العلم أحياناً إلى البحث في غاية الغايات فيقول غاية بعض الغرائز حفظ البقاء ومواصلة التناسل ، ولكن الميتافيزياء تتطرق إلى معرفة غاية هذه الغايات . فلماذا وجد الحيوان والنبات ولماذا يجب أن يبقيا ؟ ألا يمكن أن يكون الكون بدونها ؟ بل ألا يمكن للكون نفسه ألاّ يكون ؟ (وهنا يصل الإنسان إلى البحث عن غاية الغايات — الله — الذي منه كل شيء وإليه كل شيء) .

هذا ما أردنا أن نقوله عن موضوع الفلسفة بفرعيها الانتقادي والميتافيزيائي ليتاح لنا الآن مقارنتها بالعلم ومتابعة البحث في خصائصها .

١ — اليقين الفلسفي :

اليقين الفلسفي ، سواء كان انتقادياً أو ميتافيزيائياً فهو يقين عقلي مبني على أساس منطقي . ومعنى ذلك أنه يختلف عن اليقين العفوي الخاص بالمعرفة العامية ، فهو لا يقبل الأشياء بسذاجة ولا يعتقد بها إلا بتحقيق وبرهان[1] . والذي قال : « آية الحقيقة البداهة » هو فيلسوف قبل كل شيء (وهو ديكارت) .

والبرهان الفلسفي إذا تم ، خير برهان عند الفيلسوف وأقوى من البراهين العلمية . ولا تكتفي الفلسفة بالتثبت من صحة الحقيقة فقط بل تذهب إلى التثبت من صحة العقل نفسه القائل بالحقائق . ذلك الذهاب الذي قادها إلى « مسألة انتقاد المعرفة » .

٢ — الكلية الفلسفية :

أ) الكلية الانتقادية : تسن الفلسفة الانتقادية « قواعد عامة » وتطالب تطبيقها في نواحي الحياة البشرية . فالمنطق يسن قواعد الحياة الفكرية . والأخلاق تسن قواعد الحياة الخلقية . والبديع يسن قواعد الحياة البديعية .

---

١ = يندر أن نجد فيلسوفاً لم يبن في أمر اليقين العقلي . فقد لفت هذا الأمر أنظار جميع الفلاسفة وأف بعضهم فيه أعظم كتبه : منهم الغزالي وديكارت ومالبرانش وليبنتز وكنت إلخ ..

وتبدو لنا الكلية الانتقادية في مظاهر نكتفي بذكر اثنين منها :

١ — كلية تأخذ شكل مبدأ أو قاعدة ينضم تحت لوائها نوع معين من أعمال إنسانية (فكرية كانت أو خلقية أو بديعية) . فاذا قلت « يجب أن يكون الاستقراء تاماً » فان هذه القاعدة يطبقها الفيزياني والكيمياني والفزيولجاني والنفساني والاجتماعاني وجميع العلماء على جميع الحوادث . وإذا قلت « أحب لغيرك ما تحب لنفسك » فان هذه القاعدة يمكن أن تكون أساساً لجميع الواجبات الاجتماعية .

تظهر هذه القواعد الآمرية بمظهر آخر شبيه بالقوانين الطبيعية وتسمى حينئذ « قوانين فلسفية » . كأن نقول : « الاستقراء الناقص يؤدي إلى الخطأ . الفاضل ينجح في حياته العملية . » — وفي هذه القواعد يتاح للفلسفة أن تقول بمبدأ التقيد الانتقادي Déterminisme critique .

٢ — كلية تأخذ شكل تعريف أشبه بالتعريف الرياضي أو النظرية الرياضية . فحينئذٍ يكون « تقيدها » أشبه بالتقيد الرياضي العلمي . فالقاعدة مثلاً تعرّف الجمال أو نوعاً منه ، فاذا تحقق في الشيء ما عرّفته بما في التعريف من شروط وحدود ؛ فان الجمال يحدث حتماً كما يحدث مجموع الزوايا المساوي لقائمتين من حدوث تقاطع ثلاثة خطوط . وما يقال عن الجمال يقال عن الخير وعن الحقيقة .

ب) الكلية الميتافيزيائية : الميتافيزياني كالعالم يذهب من الجزئي إلى الكلي ومن المركب المرئي إلى البسيط الخفي . غير أنه « يذهب بعيداً » في تحليله وتركيبه . ففي تحليله يتوخى ألاّ يقف إلاّ عند العناصر الأخيرة والأسباب الأولى . وفي تركيبه يتوخى ألاّ يستخدم إلاّ مباديء أعم تشمل الحقيقة كلها وتضم تفاصيل القوانين العلمية . قال أفلاطون : « الفيلسوف من يجمع كل شيء بنظرة واحدة » .

وتبدو الكلية الميتافيزيائية في مظاهر أبرزها اثنان ذكرهما الأستاذ بودن(١) :

١ — كلية تملأ الثلمات الكائنة في الكليات العلمية : فالعلم مثلاً قد يثبت علاقة « تطور » في سلسلة محدودة من الحيوانات فيأتي الميتافيزياني ويتم هذه السلسلة بادئاً من الخلية إلى أكبر حيوان .

بل قد يخطر له أن يبدأ بالذرة إلى أكبر جرم فلكي . ويستعين في الوصول

---

١ — بودن : Baudin : Introduction génèrale à philosophie.

إلى هذه الكلية بالحدس الفلسفي والمحاكمة العقلية المجردة ، مستنداً إلى مباديء وفكرات عامة كفكرة التناسق والنظام والاتقان والوحدة وما شابه ذلك .

٢ — كلية ميتافيزيائية تربط المعاني المجردة على نحو ما تربط الكليات الرياضية ولها عند الفلاسفة لغة ذات مفردات خاصة دقيقة المعنى : كالجوهر والعرض ، والقوة والعقل ، والمادة والصورة ، والنسبي والمطلق ، والنهائي واللانهائي ، والوجود والعدم إلخ . . — والفرق بينها وبين الكليات الرياضية عندهم أن هذه يمكن تمثيلها بخطوط وأعداد ورموز وتلك أعمق من أن تمثل تمثيلاً حسياً . ويقينها مبني على تقيد يعتقد به الفيلسوف كما يعتقد العالم بالتقيد العلمي . فالعلل نفسها تسبب النتائج نفسها . والجواهر نفسها تسبب الأعراض نفسها . والعلاقة بين الطرفين هي علاقة طبيعتي كل منهما . ويُعبر عن هذه العلاقة تعبيراً اختراجياً بشكل تعاريف ومفاهيم .

٣ — المنهج الفلسفي :

الفيلسوف كالعالم يكتشف ثم ينظم ويؤلف . وفي اكتشافه يحلل « ذات » الحقيقة وشروطها و « ذات » الخير وشروطه و « ذات » المادة والروح والكون والإله . . تحليلاً عقلياً Rationnelle . وهذا التحليل بفصله العناصر العقلية من التجارب العديدة المختلفة ، يؤدي إلى التعاريف والقوانين والمباديء الفلسفية التي لا تكاد تتألف حتى تصبغ الفلسفة صبغة استنتاجية . وذلك لأن الفيلسوف يولد (على لغة سقراط) من المباديء نتائج جديدة بطريقة الاستنتاج . ويزداد عمل الاستنتاج بعد أن يصعد الفيلسوف من المباديء والتعاريف إلى النظريات العامة والفرضيات هناك تبدو « المعقولات » مرتبطة بعضها ببعض ومتسلسلة ويجمعها الفكر بنظرة واحدة .

نلاحظ فرقين أساسيين بين المنهجين العلمي والفلسفي : ١) أن الأول تحليلي على الأكثر والثاني تركيبي على الأكثر . ٢) أن الأول يتقيد بعالم الحس والتجربة والثاني يفلت من قيوده ويطير بأجنحة كما قال أفلاطون ليستهدف الحقائق المعقولة التي يدركها العقل وحده بدون الحواس .

— اللاوضعية الفلسفية :

قلنا إن الفرق الأساسي بين العلم والفلسفة أن ذاك وضعي وهذه لا وضعية . فالفلسفة الانتقادية « لا وضعية » لأنها لا تهتم « بما هو كائن » فقط بل تنتقل مما هو كائن إلى « ما يجب أن يكون » .

والفلسفة الميتافيزيائية « لا وضعية » لأنها لا تهمك « بما هو كائن » فقط بل تنتقل مما هو كائن إلى « أبعد مما هو كائن » .

ومن هنا يظهر لنا أن السبيل إلى تفسير « الوضعية » إنما هو مقارنتها بين معنيين بما كسائها وهما معنيان لا ثالث لهما . أولاً : كل وضعي ليس انتقادياً . ثانياً : كل وضعي ليس ميتافيزيائياً . وعكس القولين صحيح : كل فلسفي ليس وضعياً .

ب) خصائص الفيلسوف

لم يقو المناطقة على تقييد زملائهم الفلاسفة في جميع الشروط التي قيدوا بها العلماء لأسباب ندركها فيما يلي . الأمر الذي جعل بين الروح العلمية والروح الفلسفية اختلافاً كبيراً أبرز ما فيه أن للفلسفة الانتقادية اتجاهاً في النظر يعده العلم أول مجتنباته . ثم إن الفلسفة ولا سيما الميتافيزياء تطلب من صاحبها بصراحة وإلحاح ، ذكاءً حاداً ومقدرة كبيرة على التجريد وقوة في الذاكرة وسعة في الخيال وملكات ومواهب خاصة كالحدس وغو بعض العواطف بينما لا يحرج المناطقة العلماء بهذه الطلبات .

١ — الفيلسوف واليقين الفلسفي :

لا يختلف الفيلسوف عن العالم في مقدرته على الشك المنهجي بل هو أكثر منه شكاً وتحفظاً . ولغة الاحتمالات هي اللغة التي يكثر التكلم بها حين لا يتم معه البرهان الفلسفي . والحدسيون رغم تعظيمهم قيمة الحدس لم يجرؤوا حين وصلوا إلى البحث في خلود الروح إلا أن قالوا « هذا محتمل » .

على أن ليس موقف الفلاسفة جميعهم كذلك . فمنهم من يستند إلى مباديء تسمح له بيقين ثابت ولا يهمه أقبل غيره هذه المباديء أم لم يقبلها لأن الوحدة الفكرية ليست عند الفلاسفة آية الحقيقة .

ولم ينجح الوضعانيون والعلماء باقناع الفلاسفة في أن يقينهم العلمي الذي يقتصر على « تفسير الواقع » هو اليقين الحقيقي . لأن الفلاسفة يجدون هذا اليقين ساذجاً بالنسبة ليقينهم ويأتون بأدلة نذكر منها ما يلي :

١ — العلم يبحث فيما هو . و « ما هو » بنظر العلم ، ليس كل شيء في الكون . لذلك حسب العلماء فيما مضى أن سرعة النور أكبر سرعة ودرجة الصفر في الحرارة أخفض درجة .

٢ — يرد العلماء على ذلك بأن العلم تجهز أخيراً بالشك المنهجي ولن يقع في مثل هذا الخطأ . فيورد الفلاسفة أمثلة أخرى تدل على سذاجة العلم مرة أخرى وأن تفسير الحوادث بحوادث لا ينجي الفكر دوماً مما يخشى الوقوع فيه . فقد أيقن العلماء أن المادة لا تتلاشى وأن الضوء أمواج في الأثير وأن العالم مؤلف من ثلاثة أبعاد . . وإذا بهم ينكرون اليوم ذلك فيقولون إن المادة قد تتلاشى وإن للضوء ثقلاً وليس هو أمواجاً وإن عالماً ذا ثلاثة أبعاد لا يكفي لتعليل جميع ظواهر الكون .

٣ — يرد كوفيليه[1] الآن على الفلاسفة فيقول : « لا شك أن العلم يتحول كالفلسفة . . ولا سيما في مبادئه ومفاهيمه الأساسية ونظرياته العامة . ولكننا ألا نجد فيه بعض المكتسبات الثابتة ؟ إن نظريات الهندسة الابتدائية لم تتغير منذ عهد أقليدس وقوانين النواس منذ عهد غاليله وقوانين الانكسار منذ عهد ديكارت . . بينما كانت الفلسفة دوماً في تحول » . إن هذا الرد من لغة الوضعانيين وجوابه ملاحظاتان :

١) قال كوفيليه نفسه حين ختم كلامه : « إن هذه الحقيقة أي ثبات بعض المكتسبات العلمية ، تظهر اليوم أقل في صفتها المطلقة مما كان يعتقد به سابقاً » . وهو ما كان يتوقعه الفلاسفة . ولعل كوفيليه درى ماذا أصاب الرياضيين في السنين الأخيرة حين أنبأتهم الفيزياء الحديثة أن العالم قد يكون أكثر من ثلاثة أبعاد ، وماذا أصاب الكيميائيين حين أنبأتهم الكيمياء الحديثة أخيراً مبدأ لافرازيه . . ٢) إن كان تاريخ العلم عرف نظريات بقيت ثابتة فان تاريخ الفلسفة لم يخل من ذلك ، بل إن نجاح الفلاسفة بنظريات قديمة ثبتت حديثاً وقوانين فلسفية حديثة حققها العلم أخيراً ، شجع المعاصرين منهم على المضي في اختصاصه .

مثال ذلك أن « وحدة المادة » كانت من مستدلات الميتافيزياء وأصبحت اليوم من حقائق الفيزياء . وتحاول الحياتياء في الوقت الحاضر حذف الحد الذي وضعته بين المجموعات الحية وغير الحية كما في السلسلة الآتية : جوهر ، ذرة ، خلية ، إلخ .. قال هربرت دنجل : « ليست الحدود التي تفصل ما بين الفيزياء والحياتياء والنفسياء إلا فواصل وقتية ستختفي يوماً ما كما اختفى الحد الفاصل ما بين الكيمياء والفيزياء » .

والخلاصة لا يرى الفلاسفة ميزة في اليقين العلمي تسبب رجحانه على اليقين الفلسفي . ولم يثن عزمهم أن أخفق بعضهم فيما مضى بنظرياتهم لأن من العلماء من أخفق أيضاً

---

١ — كوفيليه : A. Cuvillier : Manuel t. I p. XXII

بما سماه حقائق وقوانين . قال مالبرانش « يجب على الفكر أن يحكم على الأشياء تبعاً لنوره الباطني من غير أن يصغي إلى شهادة حواسه الخاطئة وخياله ، وإذا ما فحص العلوم البشرية على الضوء التي للحقيقة المنيرة ، لا نخشى أن نقول ، إنه يحتقر العلوم جميعها تقريباً » .

لعل مالبرانش يبالغ في لفظه « احتقار » العلم . وقد يبالغ بعض الفلاسفة أكثر منه . إلا أن المتدينين منهم لا يفعلون سوى « أن يزهدوا باليقين العلمي زهداً لا احتقاراً » وبدونه غير كاف وحده ولا يستطيع أن يكون يقيناً بدون اليقين الفلسفي .

٢ — الفيلسوف والكلية الفلسفية :

١) إن القواعد الانتقادية : يشترك في إدراكها مع العقل ، الوجدانُ في الأمور الأخلاقية ، والشعورُ البديهي في الأمور البديهية . وكلا الوجدانين الأخلاقي والبديهي معرَّض لعوامل تسبب اختلافه في الأفراد والأمم . غير أن هذا الاختلاف يقل شيئاً فشيئاً مع نضوج العقل البشري واتساع المعرفة ونمو العلوم المعنوية . وقد زال تماماً في القواعد التي سميناها « قوانين فلسفية » رغم شذوذها أحياناً . فاذا قلنا في المنطق مثلاً : « إن الاستقراء الناقص يؤدي إلى الخطأ ورأيناه أدى إلى الصواب مرةً فهذا لا يبطل القانون الأساسي الذي يشترط الاستقراء التام للوصول إلى الصواب . وكذلك في الأخلاق نلاحظ تقيداً شبيهاً بالتقيد المنطقي . ويُعلل عدم نجاح القاعدة الأخلاقية تعليلاً يشبه تعليل الكيميائيين حين يقولون : « لم تتحقق شروط التجربة » من ضغط ودرجة حرارة . فاذا حكم الأخلاقي « أن الفاضل ينجح في حياته العملية » ورأى بعد ذلك أحدَ الفضلاء لم ينجح في مجتمع كله خبيث ، فلا يأخذه العجب . وقديماً زال عجب الكيميائيين من إخفاق تجربة تشترط ماءً مقطراً وتعمل في غير هذا الماء . قال بودن : « قد لا نطمئن إلى البت بنجاح القضايا الفلسفية ولكن ذلك لا يمنعنا من الاطمئنان إلى مثلها الأعلى » .

٢) إن الكليات الميتافيزيقية : تتأثر بعادلة الفيلسوف الشخصية كما سنرى . مع ذلك فقد رأينا أمثلة عن نجاح بعضها وكيف أن الميتافيزيائي يعتقد بتعقيد يعده تارة توسيعاً للتقيد العلمي وتارة شبيهاً بالتقيد الرياضي .

٣ — الفيلسوف والمنهج الفلسفي :

يجول الفيلسوف في عالم الحس والتجربة قبل أن يقفز بفكره إلى عالم المعقولات . ولهذه الجولة أثرها الكبير في مذهبه الفلسفي . فلو ألقينا نظرة في تاريخ الفلاسفة[1] لرأينا أحدهم نبغ : ١ً) إما بتأثير سياحة أجراها أو مطالعة في الكتب ثار عليها أو مرائبة لمساوىء المجتمع أطالها . . (وفي هذه الأحوال يكون انتقادياً على الأغلب) . ٢ً) وإما بتأثير تأملات في أعماق الأشياء وتعميمات في كليات الكون نظمها خلال ممارسته اختصاصاً علمياً (وفي هذه الأحوال يكون ميتافيزيانياً على الأغلب) .

قال لابرويير[2] في الفلاسفة الانتقاديين : « الفيلسوف من يفني عمره في ملاحظة الناس ويستخدم جميع مواهبه في تبيان معايبهم وسخافاتهم » . ويقول المؤرخون اليوم في الميتافيزيانيين « أصبحت الميتافيزياء وقفاً على العلماء منذ أن بلغت في مسائلها تعقيداً لا تستطيع الملاحظة العادية حله » . وقديماً قيل أصل المادة تراب وقيل نار وقيل ماء وقيل هواء . . لنقص ثقافة الميتافيزيانيين العلمية . ويؤكد كارد برنار : « أن اتصالاً متيناً بين العلم والفلسفة يفيد كليهما فيرفع العلم ويسند الفلسفة . وانفصالاً بينهما يحرم الفلسفة دعامتها وسندها ، فتهوي أو تصعد إلى الغيوم لتضل في الظلمات . ويحرم العلم قائده وسائقه ، فيقف أو يفلت في الفلوات » .

ويعمد الفيلسوف إلى علم النفس بالدرجة الأولى . ففي فرعه الانتقادي لا يمهر في إعطاء القيم إلا إذا عرف حاجات النفس وقوانينها وصفاتها .. وفي فرعه الميتافيزيائي لا يتقن الغوص في أعماق الأشياء وتوسيع تعميمه إلا إذا أدرك كيف يكتسب الفكر المعاني وكيف يتصل بالعالم الخارجي وجسده .. قال ريد Reid : « إن علم النفس البشرية هو جذر الفروع الفلسفية وجذعها الذي يغذيها » . ومن قبله قال أفلاطون : « يجب أن

---

١ — كان أكثر الفلاسفة الانتقاديين إما مؤرخين أو فقهاء أو مشرعين أو سياسيين أو مصلحين .. (صولون سقراط أفلاطون .. ابن مسكويه الغزالي ابن خلدون .. هيوم فولتير كونت إلخ ..) .

وكان أكثر الميتافيزيانيين إما رياضيين أو فيزيانيين أو كيميانيين أو أطباء (فيثاغورس أرسطو .. الرازي ابن سينا ابن رشد .. ديكارت ليبنتز سبنسر برغسون اينشتين ..) .

ومنهم من جمع الفرعين بنسبة متساوية أو مختلفة (أرسطو أفلاطون .. الفارابي ابن سينا ابن مسكويه ابن رشد .. ديكارت باسكال ليبنتز كنت سبنسر برغسون ..) .

٢ — لابرويير : La Bruyère : Catactères.

نتفلسف بكل نفسنا » بحيث نعطي للعاطفة حقها مع احترام العقل ونفهم دواعي القلب ونصغي إلى كل ما يدور في الشعور .

ثم يعمد الفيلسوف إلى علم الاجتماع وتاريخ الفكر البشري . وبكلمة واحدة إلى « تطور الحركات الفكرية الاجتماعية » . ونخص بالذكر « آخر » ما يحدث منها[1] . لأن الفلسفة التي تقتصر على القديم وتبقى بمعزل عن الحديث تمسي فلسفة بالية لا تغني فتيلاً . قال مالبرانش[2] : « يلزم ، في مادة الفلسفة أن نحب الجديد بحكم حبنا للحقيقة وبحكم اضطرارنا للبحث عنها وضرورة استطلاعها » .

على أن الجديد في الفلسفة الانتقادية غير كافٍ وحده . والاقتصار عليه قد يؤدي إلى فلسفة طائشة تعوزها الرزانة ويكون خطرها كبيراً . لذلك صار الفلاسفة في العصر الأخير يحيطون أنفسهم قبل تكوين نظرياتهم ، بجو تاريخي علمي مصطنع مقصود ويوسعون كرته بحيث يبلغ بهم الاستقراء قطره الأعظم . وكانت النتيجة أن يكثر اليوم من يقول بضرورة مراعاة بعض القواعد والمظاهر الاجتماعية التي احتقرها فلاسفة سابقون تورطوا في رغبة التغيير وتورط معهم أتباعهم في رغبة الثورة بمعناها الحديث .

والفيلسوف في مقاومة الأغراض والعواطف كالعالم بل أشد وأقوى . ويتصف بنوع من اللاغرضية عبر عنها غويو[3] في ثلاثة أبيات تدل دلالة صادقة على حب الفلاسفة للحقيقة . قال غويو في كتابه « أشعار فيلسوف » :

---

١ — لقد انتبه الأقدمون أيضاً إلى ضرورة تجهيز الفيلسوف بوسائل تساعده على اكتشاف الحقائق الفلسفية وإنماء الملكات اللازمة له من أجل ذلك . ونلاحظ دوماً أن هذه الوسائل كانت آخر وأهم ما توصل اليه الفكر البشري في حينه . قال الفارابي في كتابه (ما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة) : « أما العلم الذي ينبغي أن يبدأ به في تعلم الفلسفة ، فأصحاب أفلاطون يرون أنه علم الهندسة لأن أفلاطون كتب على باب هيكله من لم يكن مهندساً فلا يدخل علينا .. ومنهم من يرى أن يبدأ بعلم إصلاح الأخلاق .. ومنهم .. بعلم الطبائع .. ومنهم .. بعلم المنطق — وليس ينبغي أن يزدل واحد من هذا الآراء ، وذلك أنه ينبغي .. أن تصلح أخلاق النفس .. ثم تصلح النفس الناطقة كيما تفهم منها طريق الحق التي يؤمن معها الغلط والوقوع في الباطل ، وذلك بالارتياض في علم البرهان ، والبرهان على ضربين : منه هندسي ومنه منطقي ولذلك ينبغي أن يؤخذ أولاً من علم الهندسة مقدار ما يحتاج في الارتياض في البراهين الهندسية ثم يرتاض بعد ذلك في علم المنطق » .

٢ — مالبرانش : Malbranche : Rech. de la verité liv. II 2ème p. ch. v.

٣ — غويو : Guyau : Vers d'un philosophe.

Le vrai, je sais, fait souffrir: إني أعلم أن الحق يؤلم

Voir, c'est peut-être mourir; وأعلم أن النظر قد يميت

Qu'importe, ô mon œil, regarde. ولكن لا أبالي فانظري يا عين

وبهذا المعنى يقال إن المعرفة الفلسفيه اختراجية . وقد ضرب الفلاسفة في التاريخ مثلاً أعلى لهذه الاختراجية كما ضربه العلماء وزاد عليه الفلاسفة أنهم عانوا من جراء معاداة الباطل شدائد لم يعان مثلها أولئك إلاّ في ظروف معدودة .

وإذا كانت الفلسفة الانتقادية غرضية فان أغراضها سامية مثلى . والفيلسوف أبعد الناس عن التماس المنفعة الشخصية وأول من يحارب الأثرة في الأفراد والجماعات . وهو يحمل على عاتقه هم البشرية ويفكر ليله ونهاره في تخفيف شقاء هذا الحيوان الذي يسمي نفسه إنساناً . ولم يبالغ الفارابي حين اشترط في كل من يطلب الفلسفة أو يعلمها أن يتحرر عن جميع الشهوات . وذلك « كيما تكون الشهوة الفضيلة فقط وكيما تكون شهوته للحق فقط » .

وقصارى القول لا يشبه غرض الفيلسوف الأغراض التي أشرنا اليها في فساد المعرفة العلمية . وإن كان أساس العلم « الواقع » فان « الغرض » بمعناه السامي هو أساس الفلسفة الانتقادية وهو معيارها . أما الميتافيزياء فينطبق عليها كل ما قلناه عن اختراجية العلم .

٤ — الفيلسوف واللاوضعية الفلسفية :

يخلص مما تقدم أن اللاوضعية الفلسفية تتصف بكثير من صفات الوضعية العلمية رغم كونها لا وضعية . فابتعاد الفيلسوف عن العواطف والأغراض إنما هو شرط من شروط العلم ويحققه الميتافيزيائيون تحقيقاً تاماً وليس على الانتقاديين إلاّ أن يخففوا من تدخل الاندخالية ما أمكن .

ينتج عن ذلك سؤال : هل يستطيع الانتقاديون أن يخلقوا فلسفة اختراجية كل الاختراج لا غرض لها ولا عاطفة فيها ؟ هل يستطيعون أن ينفوا عن الفلسفة كل نوع من الأغراض والعواطف سامياً كان أو غير سام ؟ — الجواب بنظرنا : كلا . وتقول إن الأستاذ (بودن) بالغ حين قال : « يخطيء من يحسب أن الفلسفة اندخالية وشخصية » . لا شك أن رأي الأستاذ بودن في صالح الفلسفة ولكن اعتراضين نثيرهما لا يجوز السكوت عليهما .

١) لا يتاح للفلسفة الانتقادية أن تكون اختراجية تماماً لأنها فلسفة « قيم » . وفلسفة القيم تعطي قيمها بالنسبة لأغراض . مثال ذلك أن بعض الفلاسفة يرون في ذبح الحيوان وأكله عملاً غير أخلاقي ويسمونه شراً . وهو رأي أقرب إلى الاختراجية . مع هذا أجمع الأخلاقيون إلاّ عدداً قليلاً ، على تبرير هذا العمل .

قال بوترو[1] : « يتساءل الانسان عما إذا كان هو مركز الأشياء ووحدتها . . فما هي فائدة الكون له ؟ . . وماذا يمكن أن ينال منه ؟ وبأي عين يوافقه أن ينظر اليه ؟ — هذه أسئلة وجهها كل فيلسوف إلى الكون » .

٢) إن لم تكن الفلسفة اندخالية ، فهي على الأقل شخصية Personnelle أو جمعية[2] Collective . وقد نود مع (بودن) أن تكون لا شخصية Impersonnelle ولكنّ ما نوده غير ما نراه وغير ما نفعله . فالفلسفة الانتقادية تختلف باختلاف الفلاسفة الأفراد وباختلاف الجماعات . واختلافها لا يخلو من مؤثرات مستقله عن إرادة الانسان كالاقليم والعرق والظروف الاقتصادية . ويضاف إلى ذلك أن الميتافيزياء تتأثر بسمة ثقافة الفيلسوف من جهة وعبقريته ودقة نظره من جهة أخرى . قال بوترو : « لقد غيرت الفلسفة مذاهب وانحصرت في المذاهب . والذي كان يعطي المذهب قيمةً ويلبسه رداء الحقيقة ويجعل أرضه خصيبة هو عبقرية الفيلسوف » .

والخلاصة الأخيرة : إن الفلسفة مهما اتصفت باللاغرضية السامية ومهما قاومت العواطف والأهواء ومهما أرادت أن تباري الوضعية فهي واقعة في اللاوضعية . لأنها من حيث فلسفة قيم (الفلسفة الانتقادية) ومن جهة أخرى ذات موضوع يبتعد عن الواقع (الفلسفة الميتافيزيائية) . ولا غضاضة عليها من هذه اللاوضعية لأنها كما سنرى في الفصل المقبل تفكير ضروري لا بد منه ويحتاج اليه الانسان كما يحتاج إلى الوضعية العلمية . بل إن اللاوضعية في مكانها مدعاة للفخر وتثير الإعجاب .

١ — بوترو : E. Boutroux : Revue de méta. p. 431 et 421. Juill. 1911.

٢ — وضع النحاة العرب اصطلاحاً بمعنى Collectif . فقد أطلقوا « اسم الجمع » على كل لفظ يدل على مجموع أفراد كقوم ورهط وجيش .. (ر : المنطق الصوري . الفرق بين الاسم الجمعي والاسم الكلي) .

وبهذه المناسبة نذكر أن تسمية « كل » أعم من « جمع » . لذلك ينبغي أن لا نقسم الجامعة إلى كليات بل الكلية إلى جامعات . وبتعبير آخر ينبغي أن يقال مثلا الكلية المصرية ثم تقسم هذه الكلية إلى جامعة الآداب وجامعة العلوم وجامعة الفنون وجامعة الطب وعلم جرا .

٣ — المفاهيم التاريخية للفلسفة

أ) نظرة عامة

نستنبط من تاريخ الفلسفة نتائج عديدة يهمنا منها الآن اثنتان :

١) أن الفلسفة رغم تطورها بقيت محتفظة بعنصرين أساسيين هما « مسألتا العلم والعمل » .

٢) أن الفلسفة كانت تضم في حظيرتها جميع العلوم . وبتعبير أدق كانت معرفة عامة شاملة لكل ما يمكن أن يكون موضوع المعرفة . ثم أخذت العلوم تنفصل عنها واحداً بعد آخر تبعاً لقانون تقسيم العمل وأسباب أخرى نذكرها في مناسباتها .

١ — مسألتا العلم والعمل :

نتابع سير هاتين المسألتين في أهم مراحل الفلسفة وأدوارها كما يلي :

أ) الفلسفة اليونانية : قال الفارابي[1] : « اسم الفلسفة يوناني ومعناه إيثار الحكمة . وهو مركب من (فيلا) ومن (سوفيا) . ففيلا : الايثار . وسوفيا : الحكمة . والفيلسوفوس معناه المؤثر للحكمة وهو الذي يجعل الوكد من حياته وغرضه من عمره الحكمة » .

هذا معنى الفيلسوف عند اليونانيين . ويقال إن أول من وضع الاسم هو فيثاغورس الذي نشأ بعد عهد الحكماء السبعة[2] وأعلن أن اسم « الحكيم » لا يليق إلا بالله عز وجل وحسب الانسان أن يسمي نفسه « محباً للحكمة » .

ولو تعمقنا في تفسير الحكمة عند قدماء الاغريق لوجدنا أنها تدل على العلم من جهة وعلى الفضيلة من جهة أخرى وهما الأمران اللذان شغلا تفكير الحكماء أولاً ثم الفلاسفة اليونانيين ثم جميع الفلاسفة من بعدهم .

يقسم تاريخ الفلسفة اليونانية تبعاً لعنصري العلم والعمل إلى أربعة أدوار :

الدور الأول [القرن ٦ — ٦ ق م] وفيه كان العنصران مجتمعين عند الحكماء السبعة .

الدور الثاني [القرن ٦ — ٥ ق م] وفيه افترق العنصران بظهور الفيزيائيين والفزيائيين من جهة

---

١ — الفارابي : مبادئ الفلسفة القديمة .

٢ — الحكماء السبعة هم : Thales de Milet, Pittacos, Bias, Cléobule, et Solon.

(القرن ٦) والأخلاقيين من جهة أخرى (القرن ٥) . وقد انهمك القسم الأول بالبحث في منشأ الكون وأصل المادة (فيثاغورس ، ديموقريطس ...) . وانهمك القسم الثاني في تنظيم العمل الانساني (سقراط الذي أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض كما قال شيشرون) .

الدور الثالث [القرن ٥ — ٦ ق م] وفيه استقر النصران عند أفلاطون وأرسطو اللذين جمعا مشاغل سابقيهما من الطبيعيين (دراسة الكون) مع مشاغل أستاذهما سقراط (المسألة الأخلاقية) .

الدور الرابع [القرن ٣ — ، —] وفيه افترق النصران .. بدأ عصر الخطاط .

ب) الفلسفة الإسلامية : عني الفلاسفة المسلمون بهاتين المسألتين كما عني بهما أفلاطون وأرسطو . وأوحت اليهم الشريعة الاسلامية ما صبغ فلسفتهم بصبغة خاصة . ويبدو لنا من مؤلفاتهم أن جميعهم متفقون حيث يقولون : أمران لا بد منهما في الحياة :

١) العلم الذي ينظم العمل
٢) العمل الذي يتمم العلم

حتى أن الغزالي ألف فيهما كتابين اثنين سمى أحدهما « معيار العلم » والآخر « ميزان العمل » . وقد قال في مقدمة الكتاب الثاني ما يلي : « لما كانت السعادة التي هي مطلوب الأولين والآخرين لا تنال إلا بالعلم والعمل ، وافتقر كل واحد منها إلى الاحاطة بحقيقته ومقداره ، ووجب معرفة العلم والتمييز بينه وبين غيره وفرغنا منه (في كتاب معيار العلم) ؛ وجب معرفة العمل المسعد والتمييز بينه وبين العمل المشقي ، فافتقر ذلك أيضاً إلى ميزان (يقصد به الكتاب الثاني) .

كانت القرون الوسطى في أوربا عهد ظلام وجهل لم يظهر خلاله إلا بعض الفلاسفة القديسين . وفي القرن ١٢ نشطت الحركة الفكرية واشتهر في القرن ١٣ في جملة من اشتهر « القديس توماس داكينو » الذي اتصل بالفلسفتين اليونانية والاسلامية وعالج مسائلها مع المسائل الدينية . ويورد إيميل مال في كتابه (الفن الديني في القرن ١٣) أمثلة ترينا كيف كان يفهم الفلسفة أهل ذلك الزمان . منها رسم منحوت في كنيسة « سنس » يمثل الفلسفة بشكل إنسان جالس محجوب الوجه (إشارة إلى التفكير العقلي المجرد وازدراء الحواس) ويحمل بيده اليمنى كتاباً ويرتدي ثوباً طويلاً زُين طرفه الأعلى حول العنق بحروف الثيتا اليونانية (θ) دلالةً إلى الناحية النظرية Théorique وطرفه الأسفل بحروف الپي π دلالةً إلى الناحية العملية Pratique .

ـ) الفلسفة الحديثة : جدت المسألتان في الفلسفة الحديثة وازدادتا تنظيما وتحديداً . وقد حصر (كنت) الفلسفة بهما في قوله :

١ً) ماذا يمكننا أن نعلم ؟

٢ً) ماذا يجب أن نعمل ؟

كما أنه ألف فيهما كتابين اثنين سمي الأول « نقد العقل الخالص) والثاني « نقد العقل العملي . وأتى (بوترو) أخيراً ووظف الفلسفة للبحث في العلاقات بين العلم والعمل .

ملاحظتان : ١ً) يجب أن نلاحظ تطوراً هاماً حدث في المسألة الأولى . فقد كانت في منشئها اكتساباً علمياً محضاً ثم أنحت مسألة منطقية ، ثم منطقية انتقادية ثم انتقادية محضة أي عالجها الفلاسفة مستقلة عن المنطق . وقد أخذت صفتها المنطقية منذ نمو الفكر البشري . وظهرت في شكلها المنطقي الانتقادي في الفلسفة اليونانية وفلسفة القرون الوسطى . إلاّ أن التفكير الصوري[1] كان يغلب عليها . ولما تقدمت العلوم التجريبية ازدهر المنطق التطبيقي وقل شأن المنطق الصوري واحتفظ انتقاد المعرفة بمركزه .

٢ً) ولم تبرأ المسألة الثانية (أي مسألة العمل) من بعض هذا التطور . فقد كانت في منشئها أفعالاً فطرية ثم انقلبت إلى مسألة انتقادية (المسألة الأخلاقية) ثم تعقدت مع تعقد المجتمعات . وقد أخذت شكلها الانتقادي منذ تكون أبسط وسط اجتماعي عاش فيه الانسان القديم .

٢ — انفصال العلوم عن الفلسفة :

أ) الفلسفة اليونانية : قلنا إن الفلسفة كانت معرفة عامة شاملة . وهو ما كانت عليه الفلسفة اليونانية . فقد كان فلاسفتها علماء وفلاسفة بآن واحد . ونمت فيهم الروحان العلمية والفلسفية معاً . قال فيثاغورس « أكثر الناس عبيد فمنهم عبيد المجد ومنهم

١ — كان من عوامل انتشار المنطق الصوري في الفلسفة الاسلامية وجود المقدمات الثابتة ، أي وجود آيات القرآن الكريم التي يعتبرها المسلمون حقائق ثابتة مطلقة إلهية لا مجال لأن تكون موضوعاً للمنطق التطبيقي . فإذن ليس على المفكر إلا أن يبدأ بالمقدمة ليستخرج النتيجة .

عبيد المال وأقلهم من يلتفت إلى دراسة الطبيعة وينمت نفسه بمحبة الحكمة » . وقال هردوت أيضاً : « إن كريزوس Crésus وجه مرة إلى صولون هذه العبارة ؟ « سمعت أنك طفت بلاداً كثيرة كفيلسوف لمجرد الملاحظة » .

ب) الفلسفة الاسلامية : صنف بعض المسلمين الفلسفة كما صنفها أرسطو واختلف بعضهم عنه إلاّ أن جميعهم مزجوا العلم والفلسفة كما مزجتها الفلسفة اليونانية .

١ — تصنيف أرسطو : توجد تحت الفلسفة الأولى[١] ثلاث فلسفات :

١ً) الفلسفة النظرية (رياضيات ، فيزياء ، تاريخ طبيعي) .

٢ً) الفلسفة العملية (أخلاق ، اقتصاد ، سياسة[٢]) .

٣ً) فلسفة الشعر والجمال .

٢ — تصنيف الكندي[٣] : علوم الفلسفة هي :

١ً) العلم الرياضي . ٢ً) علم الطبيعيات . ٣ً) علم الربوبية .

٣ — تصنيف الفارابي[٤] : ١ً) الفلسفة النظرية وفيها علم التعاليم والعلم الطبيعي وعلم مابعد الطبيعيات . ٢ً) الفلسفة المدنية وفيها الصناعة الخلقية والفلسفة السياسية[٥] .

٤ — تصنيف ابن سينا[٦] : علوم الفلسفة ستة : العلوم الرياضية ، العلوم المنطقية العلوم الطبيعية ، العلوم الالهية ، العلوم السياسية ، العلوم الخلقية[٧] .

---

١ — أي الميتافيزياء كما نفهمها اليوم . وأول من أطلق عليها اسم الميتافيزيك هو الفيلسوف (آندرونيكوس) نحو ٣٠ قبل الميلاد . وذلك على أثر تصنيف كتب لأستاذه في فلسفة أرسطو . فقد صنف الفلسفة الأولى بعد الفيزياء (وكلمة ميتا = بعد) . والحق أن الفلسفة الأولى تعالج بحوث ما بعد الطبيعة فاستعمل الفلاسفة الإصطلاح لفظاً ومعنى .

٢ — أي سياسة الفرد نفسه وسياسة المنزل وسياسة المدينة . . وهذه السياسات بحثها مؤلفو الإسلام بتفصيل من بعد أرسطو .

٣ — راجع شرح رسالة ابن زيدون ص ١٤٦ . للإمام جمال الدين بن نباتة المصري .

٤ — راجع التنبيه على سبيل السعادة ص ٣٠ ، ثم تصنيف العلوم ص ٣٤ .

٥ — الفلسفة السياسية عند الفارابي هي « معرفة الأمور التي بها تحصل الأشياء الجميلة لأهل المدن والقدرة لهم وحفظها عليهم » . (التنبيه ص ٢١) .

٦ — راجع : تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات رسالة (٥) : أقسام العلوم العقلية .

٧ — تضيف إلى ملاحظاتنا أن الفلاسفة الإسلام يطلقون لفظ (علوم) على الفلسفات أيضاً . ولا يزال =

obeikandl.com

٥ — تصنيف ابن خلدون(١) : علوم الفلسفة والحكمة أربعة : علم المنطق والعلم الطبيعي والعلم الإلهي وعلم المقادير .

وفي أوربا كانت الفنون السبعة (٢) تابعة للفلسفة وكانت الفلسفة مؤلفة من الأخلاق والمنطق والفيزياء ومرتبطة بالإلهيات ارتباطاً متيناً . ومن الآثار التي تدل على ذلك في القرن ١٢ لوحة مشهورة لرئيسة دير تدعى « هرّاد دلندسبرغ » رُسم في وسطها دائرة تجلس فيها امرأة وعلى رأسها تاج يرمز إلى أقسام الفلسفة بثلاثة رؤوس (الأخلاق والمنطق والفيزياء) . وقد جلس في القسم الأسفل من هذه الدائرة سقراط وأفلاطون وحولها سبع أقواس تقف تحت كل قوس امرأة تمثل أحد الفنون السبعة . فامرأة الهندسة تحمل فرجاراً ، وامرأة الموسيقاء تحمل آلات غناء ... ومما يلفت النظر أن امرأة الجدل تحمل رأس كلب إشارة الناب الحاد الفولاذي رمز القياس والمناظرة .

ح) الفلسفة الحديثة : ظل بعض الفلاسفة في القرون الحديثة يفهمون الفلسفة فهماً واسعاً (بيكون ، ديكارت ، ليبنتز ..) وقد شبهها ديكارت(٣) بشجرة جذرها الميتافيزياء وجذعها الفيزياء وفروعها المكنياء والطب والأخلاق . غير أن العلم شرع في هذه المرحلة هو نفسه « باسم الوضعية » ينفصل عن الفلسفة ، رضي الفلاسفة أم لم يرضوا . فاستقلت الفيزياء مع غاليله (١٦٢٤) والكيمياء مع لافوازيه (١٧٩٤) والحياتياء مع لامارك (١٨٢٩) وكلود برنار (١٨٧٨) . والآن يسري الاستقلال من الحياتياء إلى علمي النفس والاجتماع على مشهد منا .

ويمكن أن نوجز أسباب هذه الحركة الاستقلالية الوضعية بسببين أصليين :
١) تطبيق قانون تقسيم العمل . ٢) خصوبة الطريقة التجريبية .

١ — فتطبيق تقسيم العمل معناه أن العالم الحديث ، لم يعد بامكانه مع اتساع العلم ، أن يكون عالماً وفيلسوفاً بآن واحد ، وقد لجأ إلى الوضعية واتخذها حجة

= المؤلفون المحدثون في الغرب والشرق يقعون في هذا الغلط فيقولون مثلاً (علم الأخلاق) بدلاً من أن يقولوا (فلسفة الأخلاق) . ويقولون (علم ما بعد الطبيعة) بدلاً من يقولوا (فلسفة ما بعد الطبيعة) . لذلك رأينا أن نلفت النظر إلى المفهوم الأخير للفلسفة ولا سيما مفهوم القرن العشرين اجتناباً لمثل هذه الاغلاط .

١ — راجع مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٨ .

٢ — الفنون السبعة هي : النحو ، البلاغة ، الجدل ، الموسيقاء ، الحساب ، الهندسة ، الفلك .

٣ — ديكارت : Descartes : Principes de la philosophie.

الانفصال لأن « تفسير الحوادث بحوادث » يسمح له بالانفراد إلى ناحية من الكون والتفرغ لها طول حياته .

٢ — وخصوبة الطريقة التجريبية معناها أن العلماء (وهم أناس عاديون) رأوا أحد شيئين : إما أن المطلق لا يدرك بتاتاً وإما أنهم وحدهم لا يدركونه ويدركه أناس ذو ملكات استثنائية هم الفلاسفة . فخير للعلماء إذن أن يستثمروا الطريقة التجريبية التي باكتشافها المجاهيل الكثيرة تروي غليل استطلاعهم من جهة وتعطيهم منافع عملية من جهة أخرى .

ملاحظة : يجب أن نميز بين انتشار الوضعية وبين ولادتها ونموها . فقد ولدت مع أقدم علم إنساني وترعرعت في القرن الثالث ق م مع أقليدس (استقلال الهندسة) وأرخميدس (استقلال المكنياء) . ولم تنتشر وتبسط نفوذها إلاّ في القرون الحديثة . فقديماً كان العالم الفيلسوف وضعانياً وميتافيزيانياً بآن واحد . وكثيراً ما كان ، والتجربة أمامه ، يقفز بفكره من الأرض إلى السماء ثم ينزل من السماء إلى الأرض ولما تنته التجربة . واستمرت الحال كذلك حتى عند ديكارت الذي كان يعلق الحركات المكنيائية بارادة الإله (تفكير ميتافيزيائي) ثم يعلقها بعضها ببعض (تفكير وضعي) فلا غرابة إذن أن تنبت عنده الفيزياء والمكنياء من الميتافيزياء . وكان فيثاغورس يُرجع عناصر الكون إلى العدد وتكلمت الأعداد عند سواه (دلت على الخير والشر وصلحت للتكهن) . وعلى الرغم من ثروة الكيمياء التجريبية فقد أفعمها الأطباء بالمسائل الميتافيزيائية كما أفعمها السحرة والسيميانيون بالأباطيل والأوهام .

ب) المفهوم التقليدي Conception traditionnelle

لم ينجم عن انفصال العلوم لأول وهلة ، أزمةٌ في مادة الفلسفة ولا غضاضةٌ في معناها . بل كان من الفلاسفة أن يمتازوا بامتياز الأشراف عن سواد الشعب . فالفلسفة هي المعرفة والمعرفة الممتازة التي تتعمق بالعلم وتتسع بالتعميم . هي فلسفة ما وراء الطبيعة التي لا تقنع ولا تقف عند الأسباب القريبة المباشرة .

هذا هو المفهوم التقليدي للفلسفة ويرجع في الأصل إلى أقدم يوم فصل الناس فيه بين معرفتين : معرفة قريبة ومعرفة بعيدة . وبزغ هذا الفصل عند أرسطو

في تصنيفه للفلسفة . ولما نهض العلم انقلب هذا التصنيف إلى تفريق وتخصيص ووقعت الفلسفة في طرف والعلم في طرف آخر .

ويُعرف هذا المفهوم عادة بأشهر أدواره وهو الدور المدرسي . وقد شرحه كريسون(١) شرحاً دقيقاً فقال :

« إذا درسنا مثلاً فلاسفة القرن السابع عشر كديكارت وتلاميذه ، نجد أنهم وضعوا للفلسفة برنامجاً يهر الألباب ، فقد أرادوا منها أن تكون مجموعة تفسيرات كلية عامة ذات قيمة مطلقة . ومعنى هذه المجموعة :

١ً) مذهب مؤسس على طريقة علمية يستهدف تاريخ الحقائق وطبيعتها المختفية وراء الظواهر الحسية .

٢ً) نظرية تبين الأصل الأساسي « لما هو كائن » ببراهين تامة .

٣ً) تفسير عقلي للأسباب والغايات التي من أجلها وجد الكون بكل ما يحتويه وما يحدث فيه » .

يتتج أن المفهوم التقليدي للفلسفة يضع العلم في طرف والميتافيزياء في طرف آخر كفلسفة . فالفلسفة بنظره هي الميتافيزياء وحدها . وبتعبير آخر : إن المفهوم التقليدي يوحد بين الفلسفة والميتافيزياء ولا تخطر له الفلسفة الانتقادية . ولا شك أن برنامجه الميتافيزيائي برنامج عالٍ وطموح ويدعو إلى الإعجاب ، وله من يقول به الآن . ولكن هل في كفاءة العقل البشري تنفيذه ؟ نترك الجواب أولاً للوضعانيين الذين هم سألوا هذا السؤال وأجابوا عليه بأنفسهم .

ح) المفهوم الوضعي

أتى على التجربة سنون رخاء فقرت خلالها الفلسفة التقليدية في أعين بعض القوم . ذلك لأن المسائل العلمية التي كانت تمارسها مع المسائل الميتافيزيائية (والتي كانت تمس الحياة العملية) دخلت في حوزة العلم . ولما التف الناس حول العلم قيل عن الفلسفة ليس لها إلا التقاط ما تساقط من موائد أفلاطون وأرسطو ، وجاء في هذه الأزمة فلاسفة(٢) اجتهدوا في الميتافيزياء وأفرطوا في الاجتهاد فلم يكن منهم إلا أن أبطل بعضهم رأي بعض ونسخ اللاحق السابق دون أن يبوح الكون بأسراره

١ — كريسون : Cresson : Position actuelle des problèmes philosophiques.

٢ — فختة ، شلنج ، هجل . .

الباطنية . واتجهت الحياة فوق كل هذا إلى المادة لأسباب اقتصادية فتم الأمر ولفظ الوضعانيون قوانينهم .

كان اوجوست كونت يراقب الموقف عن كثب وكان يتقفى تطور الفكر البشري . فما كادت تروق له نتائج العلم الوضعي حتى عبر عن ارتياحه بقانون الأحوال الثلاث : وقد ختم هذا القانون وقال(١) : « وأخيراً ، في الدور الوضعي ، يعترف الفكر البشري باستحالة الحصول على المعاني المطلقة ، فيعدل عن بحث أصل العالم وغايته ، وعن معرفة الأسباب الباطنية ، ليتفرغ إلى اكتشاف العلاقات الثابتة بواسطة المحاكمة والملاحظة كلتيهما » . وأراد أن يريح الفكر البشري من عناءٍ ليس فيه جداء فغير برنامج الفلسفة التقليدية :

فالفلسفة بعد الآن هي : دراسة مجموعة المفاهيم البشرية (كما درسها هو في قانونه ..) ثم دراسة كليات العلوم من حيث اعتبارها خاضعة لمنهج واحد كأنها علم واحد (كما درسها هو في تصنيفه ..) .

وبتعبير آخر : الفلسفة بعد الآن هي « وصفُ علوم العصر مع تعيين روح كل علم ، واكتشافُ علاقات العلوم وتسلسلها وإرجاع مبادئها إلى أقل عدد من المباديء بمنهج وضعي » .

وقد قال بهذا المعنى سبنسر(٢) في انجلترا « إن العلم هو المعرفة الموحدة بعض التوحيد والفلسفة هي المعرفة الموحدة تماماً » .

استمد الفكر الانجليزي روحه من حياة صناعية تجارية تنظر إلى الواقع نظرة احترام وتقديس . وكان بيكون قد اتجه بهذا الفكر وتبعه هوبس بمذهبه المادي ثم لوك وهيوم وبنتام بمذاهبهم الخاصة التي كلها جوانب للفلسفة العملية . وكانت كلها أيضاً ترى في الفلسفة تعميماً لنتائج العلوم (ظهور فلسفة كونت وسبنسر) . لهذا لقيت الوضعية بعد كونت أشياعها في انجلترا (ستوارت مل هاريسون ..) أكثر مما لقيت منهم في فرنسا مسقط رأسها . (من قصة الفلسفة الحديثة ص ٥٦٦) .

---

١ — كونت : A. Comte : Cours de philosophie positive.

٢ — يرى سبنسر أن كل استقصاء للعلل النهائية والحقائق المطلقة لا بد أن يقف عندحد عاجزاً (نظرية الحقيقة المنلقة The Unknowable) . فهو وضعاني مثل كونت إلا أنه لايتفق معه في جميع المسائل الوضعية .

ويعقب كونت وضعانيون آخرون راقبوا في تطور الفلسفة « انفصال العلوم » فتنبؤا بزوال كل فلسفة حتى فلسفة كونت . وأثلهم ظفرُ العلم فأبوا الاعتراف إلا بالمعرفة العلمية التي لا معرفة فوقها .

١ً) فانفصال العلوم سيؤدي إلى زوال الفلسفة بدلائل تاريخ الفلسفة نفسه . قال جوبلو(١) : « لقد ولدت الفلسفة جميع العلوم وغذتها في حجرها حتى استقلالها الطبيعي وليست هي إلاّ بقية باقية من المعرفة البشرية التي لم تنجح بعد بنوال قيمتها العلمية » . « وستنحل غداً كلها في العلم » .

٢ً) وانفصال العلوم سيعقبه اتحاد العلوم بدلائل تاريخ العلم إن لم نقل تاريخ الفلسفة أيضاً . وإذا ما اتحدت العلوم وأصبحت علماً واحداً فلا حاجة إلى معرفة خاصة توحد وتؤلف بينها لأن كل حقيقة جديدة ترتمي عندئذ رأساً في مكانها بين الحقائق الأخرى » . « وإن كان يخيل إلينا الآن أن هذه الحقائق منفصلة فذلك لجهلنا جاراتها » .

ينتج أن المفهوم الوضعي للفلسفة إما أن يجعل الفلسفة علماً واحداً وهذا العلم لا يفترق عن سائر العلوم إلا بدرجة التعميم والوحدة . وإما ألاّ يعترف بكيان الفلسفة كمعرفة لها قيمتها . وفي كلا الحالين قابل للمناقشة ونناقشه في المفهوم الأخير .

د) المفهوم الأخير

اعتبر الوضعانيون المرحلة الطويلة التي اجتازتها الفلسفة التقليدية في غرورها الميتافيزيائي امتحاناً عادلاً لكفاءة العقل البشري . وكانت فلسفتهم ردّ فعلٍ للفلسفة التقليدية كما كانت الكيمياء الوضعية ردّ فعلٍ للسيمياء القديمة التي طلبت الذهب من الحجر عبثاً .

فالوضعانية من هذه الناحية هي فلسفةُ تواضعٍ فكري لا تُنكر مزاياه . ولكنها يؤخذ عليها أنها لم تدرك المعنى الواسع للفلسفة فأبطلت كل فلسفة باسم الميتافيزياء .

وكان يجب أن نلقي تبعة هذا الخطأ على الفلسفة التقليدية التي استرسلت في غرورها الميتافيزيائي دون أن نجهر بفرعها الانتقادي ، لولا أن الوضعانيين استخرجوا نتائجهم من تاريخ الفلسفة عامة . لقد تابعوا تاريخ الفلسفة منذ بدئه حتى العصر واطلعوا على

---

١ — راجع كتابيه :

Goblot : Système des sciences p. 213.

Goblot : Essai sur la classification des sciences p. 10

ما عالجه الفلاسفة من مسائل ، إلاّ أنهم لم يحسنوا[1] استخدام منهجهم الوضعي . وقد كان استقراؤهم ناقصاً لأنهم راقبوا في تطور الفلسفة « تقدم العلم وانفصال العلوم » ولم يراقبوا الوجوه الأخرى كاستمرار مسألتي العلم والعمل وتحول المسألة الأولى . ولو فعلوا لعدّلوا بعض نتائجهم وقنعوا بأن الفلسفة لن تزول وأن الوضعانية لن تحل محلها .

— هذا إذا خاطبناهم بلغة الواقع (المنهج الوضعي) . أما إذا خاطبناهم بلغة المثل الأعلى (المنهج الفلسفي) . فاننا نأخذ عليهم أشياء نذكرها إثر مناقشتنا الوضعية .

(أولاً) مناقشة وضعية علمية

يقول تاريخ الفلسفة (الوضعي) : لم تكن الفلسفة في مرحلة من مراحلها ميتافيزياء فقط . إنما كانت قبل كل شيء « انتقاداً » . والفلاسفة العظماء (والتقليديون معهم) نالوا شهرتهم عن هذا الطريق ولم ينلها أحدهم إلاّ لأن الناس فهموا عليه ما قال وكان لأقواله أثر في نهج حياتهم وسلوكهم وتفكيرهم .

ثم يقول تاريخ الفلسفة (الوضعي أيضاً) : إن الوضعانية قديمة كالميتافيزياء وأقدم من الانتقاد . ولو كانت تسد حاجات البشرية لدخرت الفلسفة منذ أقليدس وأرخميدس على الأقرب . وفضلاً عن أن الوضعانية خلقت مع أقدم علم ، فقد كان لها أنصار من الفلاسفة القدماء . فكان إبقور يرى العالم آلة مكنيائية لا مجال فيها إلى تخيل أرواح مجردة . فكل شيء مكوّن من ذرّات . مع ذلك لم يبطل إبقور الفلسفة لأن وظيفتها كما قال : « أن تهيء الانسان سعادته في الحياة » . وهو ما يقع تحت عنوان الفلسفة الانتقادية :

١ — الفلسفة الانتقادية :

أ) المنطق : كانت مسألة العلم كما أسلفنا « اكتساباً علمياً محضاً » . ولكنها سرعان ما تحولت إلى مسألة انتقادية . والضرورات الحيوية التي أوجدت « العلم » هي نفسها بعثت « المسألة المنطقية » . ولقد مرّ على الانسان يومٌ قال فيه : « الجهلُ خيرٌ من الخطأ » لأن الخطأ كان أشد خطراً من الجهل .

---

١ — ولكي يحسنوها يجب أن يحسنوا التفلسف بغير الوضعانية أيضاً . أي بالفلسفة الانتقادية (المسألة المنطقية) .

لا يتسنى للوضعانية أن تعالج مسائل المنطق . لأن المنطق « مجموع قواعد » وليس من فصيلة « تفسيرات الحوادث بحوادث » . وإذا ابتغت الوضعانية أن تكون منطقاً فانها تخرج عن وضعانيتها . أي تنقلب إلى معرفة من نوع جديد غير المعرفة العلمية . وهو ما اسمه معرفة فلسفية .

ب) الأخلاق : وكذلك الأخلاق (مسألة العمل) . فهي مسألة انتقادية . وقد لزمت البشرية بحكم أقدم الضرورات الحيوية والاجتماعية . حتى أن باسكال قال : « لقد أبحرنا » . أي أننا في خضم الحياة فينبغي أن نعلم كيف يجب أن نقود السفينة حتى لا نغرق . فأين الوضعانية وأين تفسير الحوادث بحوادث من هذه المسألة .

للإنسان واجبات جسمية مكره على أدائها وإلا فالمرض أو الموت . كما أن له واجبات اجتماعية مكره على أدائها بقيود القرابة ، والصداقة ، والمهنة ، والوطن ... وهي تستلزم تأملاً أعمق لاشتباكها وتعدد المبادئ التي يستند إليها الانسان في حلها . فهل يتبع مبدأ الأثرة أم مبدأ الإيثار ؟ وهل يتبع الزهد في الحياة أم مبدأ بناء الأقوى ؟ هذه كلها مسائل لها تفرعات وعقد تشغل تفكير الفرد والجماعات في كل حين . ولعل تقدم العلم زادها اشتباكاً في نتائجه الصناعية .

ج) البديع : وما يقال عن الأخلاق والمنطق يقال عن البديع . فهو قديم مثلها وضروراته النفسية الاجتماعية لا تقل عن الضرورات الحيوية سلطاناً . وقد سرد سبنسر(١) أمثلة عن تحمل الابتدائي آلاماً في سبيل الجمال نشاهد أشباهها في المجتمعات الراقية (اقتلاع الشعر من الوجه ، المثابرة على الجوع في حال السمن ..) . وعن اصطدام ضرورتين نجمت مسألة « بديعية أخلاقية » شغلت تفكير الانسان كالمشاغل الأخرى . فهل نرجح الجميل على النافع أم النافع على الجميل ؟ هذا سؤال سأله سبنسر وكثير سواه .

والمسألة البديعية أصابها عصور انحطاط(٢) وازدهار كالمسألة الأخلاقية . فبينما كان فاروق القديم مثلاً يرمي بها عرض الحائط إذا بفاروق الجديد يضعها نصب عينيه . وقد زادها تقدم العلم لوضعي انتباهاً حين أعلن علم النفس « أن للمظاهر البديعية أثرها العملي والخلقي والصحي » .

---

١ — سبنسر : Spencer : Education p. 1 - 4.

من هذه الأمثلة : أ) آلام الوشم في درجة عالية من الحرارة . ب) أن هندياً يقتصد نفقات ١٥ يوماً من عمله لشراء زينة ملونة .

٢ — نلاحظ أن انحطاط المظاهر البديعية ، قد يكون مقصوداً لأسباب اقتصادية . وإلا فالغريزة =

٢ — انتقاد المعرفة والميتافيزياء :

أ) انتقاد المعرفة : يقول الوضعانيون إن التفكير الوضعي خير تفكير وما سواه « خالٍ عن المعنى » كما صرح كونت . فتسألهم الفلسفة برهانهم إذا كانوا صادقين .

فالوضعانية مقودة بالرغم منها إلى مسألة انتقاد المعرفة . وهي مسألة ضرورية لأنها مسألة مبدأ . والمبدأ أهميته وضرورته في كلا الحياتين الفكرية والعملية . وإن كانت الفلسفة تسأل هذا السؤال فليس مقصدها نكران الوضعانية . كلا إن الفلسفة تعترف بالوضعانية كدرجةٍ راقيةٍ من التفكير ولكن « اعترافها هذا أو إنكارها » إنما هما « فلسفة قيم » ليست من الوضعانية في شيء .

ثم إن العلماء الوضعانيين لا بد لهم من الاعتقاد بمبدأ التقيد فهل يخلو هذا الاعتقاد من اعتبارات فلسفية ؟ — إن اليقين العلمي لن يكون يقيناً بلا مساعدة اليقين الفلسفي[1] .

ب) الميتافيزياء : كنا قسمنا الكليات الميتافيزيائية إلى نوعين . ونسبنا مع الأستاذ بودن إلى النوع الأول « تقيداً علمياً » استعداداً لإخراجه عن حظيرة الميتافيزياء وادخاله في حظيرة العلم . وفي ذلك اعتراف مع الوضعانيين بأن العلوم ستتلاقى وأن مسائل ميتافيزيائية ستؤول إلى العلم .

غير أن العلم مهما تمادى في هذا الاتجاه فانه لن يخذف الميتافيزياء كلها لا العلمية ولا الاختصاصية (أي الفلسفية ذات التقيد الفلسفي) .

١ً) لن يحذف الميتافيزياء العلمية لأن الفكر البشري كلما اتسع علمه لاحت له نواحٍ جديدة تصلح أن يكون مطمحاً ميتافيزيائياً . وإن تلاقت العلوم فان ذلك لن يمنع انفصال كل علم بدوره إلى أجزاء تحتاج إلى ميتافيزياء موحدة . مثاله ما حدث في الفيزياء التي تجزأت إلى علم الصوت وعلم الضوء وعلم الكهرباء وعلم الحرارة . .

= البديعية هي هي في كل مكان وزمان . وقد يكون مقصوداً أيضاً لتنافيه مع بعض المظاهر لا أخلاقية كما سنشرح ذلك في كتابنا (موجز البديع Esthétique) . والذي نكتفي بذكره هنا أن وجود طرفين لمسألة واحدة جعل الناس يمزجون بين المبدئين . فقال لامرتن في كتابه رفائيل : « إنه يجب الفضيلة لجمالها لا لكمالها » . وقال الفارابي في كتابه (التنبيه) : « إن الفلسفة صناعة مقصودها تحصيل الجميل » . وهكذا تراءى للبشر الجمال في شيخوخة فاضلة كما تراءى لهم في فتاة حسناء .

١ — سوف نرجع إلى هذه المناقشة بتفصيل في كتاب المنطق .

العلوم التي جمعتها الميتافيزياء تحت فكرة « الاهتزاز » قبل أن يجمعها العلم نفسه . ولو فرضنا أن أجزاء العلم الواحد تتصل بعد انفصال فان العلم الكلي الجديد سيبقى طرفاه طرفين ميتافيزيائيين .

وهذه الأطراف الميتافيزيائية هي من العلم أشبه بشعيعات الصباح من أشعة الشمس المشرقة وهي في عقول الفلاسفة أجمل من شروق الشمس في قلوب الشعراء . وما دام في الشاعر قلب وعاطفة وفي الفيلسوف عقل وحدس فانها تحيا وتعمر .

مع ذلك لا ترضى الفلسفة أن تكون هذه الميتافيزياء حسب . فهي أطمع من أن تسمي نفسها فلسفة هامش . وهذا الهامش إنما استقبلته لأنها رحبة الصدر واسعة كعادتها . ولأن الوضعانية نبذته[1] لضيقها . فلنوجه نظرنا إذن إلى اختصاصها :

٢) لن يحذف العلمُ مهما تمادى في اتجاهه ، لن يحذف الميتافيزياء الاختصاصية . لأن كليات هذه الميتافيزياء لا تتصف ولن تتصف بالصفات الوضعية . فالإله وخيره وشره والجوهر والذات واللانهاية .. كل هذه مما تقيم في أقصى ما وراء الطبيعة . ولا نكتفي بقولنا لن يحذفها العلم بل نقول لن يصيب قيمتها بخسٌ ما ولن تضمحل . ذلك لأن طبيعة الفكر البشري من جهة وحب اطلاعه من جهة وحاجات حيوية من جهة كل هذا حائل دون اضمحلالها وحائل منيع . قال وليم جمس[2] : « أينما يقم حديث حول حرية اختيار الإله وعلمه الأبدي أو حول الخير والشر تجد كل شخص قد أصاخ بسمعه إليه . ذلك لأن لنا في نتائج الفلسفة مصلحة حيوية ولأن حذاقتنا تستحسن أدق أدلة الفلاسفة » .

نستنتج من كل ما سبق أن قانون اوجوست كونت لا ينطبق مع الواقع تمام الانطباق . فالميتافيزياء عاشت في كل عصر والوضعانية عاشت في كل عصر . ويدافع الآن عن الميتافيزياء فلاسفة معاصرون كما دافع عن الوضعانية فلاسفة أقدمون . وقد جمعت القرون القديمة « الدين والدنيا » في اليونان والرومان كما جمعتها القرون الوسطى في المشرق والمغرب . ولا يزال الدين[3] حاجة اجتماعية لها أنصارها في كل

---

١ — بعض الوضعانيين لا ينبذونه بل يرشحونه إلى العلم أملاً بمستقبله العلمي . إلا أنهم لا يكسبونه « قيمة علمية » بهذا الترشيح فيظل ميتافيزيائياً .

٢ — وليم جمس : البراغماتسم Bragmatisme . (راجع علم النفس للدكتور جميل صليبا . ص ٢)

٣ — يعد بعض المؤلفين «فلسفة الدين» واحدة من الفلسفات الانتقادية . فتكون هذه الفلسفات بنظرهم =

أمة . والملاحظة العادية اليومية سرعان ما ترينا عالماً وضعانياً في مخبره دينياً في معبده ميتافيزيانياً في منزله .

وكما أن قانون كونت لا ينطبق مع الواقع فكذلك فلسفته الوضعية لا تنطبق مع الفلسفة بحكم أنها وضعية . فهي تاريخ للفكر البشري وعلمٌ نفسي اجتماعي أكثر منها فلسفة بمعناها النوعي لأن من صفات الفلسفة أن تكون لا وضعية .

وأخيراً من المعاني الميتافيزيائية مالا يستغني عنه حق العلم الوضعي وغالباً ما يستعملها في مسائله وتعاريفه[1] دون ما شعور منه كاللانهايات الرياضية والقوى الجاذبة والتيار الكهربائي . . وقد يقول (جوبلو) إن العلم يفرز لهذه المعاني مكاناً خاصاً داخلها فنجيبه بأن إدخالها في ضيافة العلم لا ينفي عنها صفتها الميتافيزيائية . أو كما قال (جوبلو) نفسه « لا يكسبها قيمةً علميةً » . ثم إذا جاز لنا إدخال بعض المعاني كاللانهاية والقوى . . فان بعضها كالإله ولواحقه فهو مما لا تتسع له زوايا العلم .

(ثانياً) خاتمة ومناقشة فلسفية

أما وقد انتهينا من المناقشة الوضعية فلنا أن نتمنى من الوضعانيين أن يكونوا أكثر شجاعة وجلداً وأكثر صبراً وتريثاً . فقد اعتبروا المرحلة التقليدية مرحلة طويلة مع أنها ليست شيئاً يذكر بالاضافة إلى عمر البشرية . ولو فاز بقوانين أعمار المسائل في العلم والفلسفة لرأوا هذه المرحلة قصيرة وأقصر من لمح البصر . إن بين اختراع النار واختراع الكهرباء من المسافة أضعاف أضعافها ما بين اكتشاف وحدة المادة في الميتافيزياء واكتشافها في العلم ، أو ما بين فلسفة أفلاطون وفلسفة المدرسيين . وإذا كانت الكيمياء الوضعية عدلت عن البحث عن الذهب فانها لم تهمله مطلقاً ، فما برحت ترقب الظروف وتستنهز كل فرصة . وهي الآن قوية الأمل متفائلة بتحقيق جل رغباتها التي كانت ميتافيزيائية مع اعترافها بأن الكل لن يتحقق .

= أربعة أقسام . أما نحن فقد قسمنا مسائل الدين إلى قسمين : قسم نسبناه إلى الأخلاق (مسألة العمل) . وقسم نسبناه إلى الميتافيزياء (الإلهيات) . لذلك نطلق أحياناً لفظ ميتافيزيائي على ما هو ديني . ويعرف بالقرينة .

١ — فكرة اللون من الفكرات المجردة التي ترد في الفيزياء . وفكرة عدم اللون من الفكرات التي تستعيرها الكيمياء من الميتافيزياء . مثلاً الغاز الفلاني لا لون له .

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

والوضعانيون ينكرون على الإنسان الملكات الفلسفية مع أن المتعمق في دراسة الفلسفة كلما تعمق مال إلى تصديق الفلاسفة القائلين بوجودها . وليس صحيحاً أن هذه المعاني خالية عن المعنى فالخير والشر والجوهر والعرض .. هذه فكرات ليست من الفهم بأقل حظاً من فكرتي اللون وعدم اللون . ولو كان البشر لا يفهمها حقاً لملها وهجرها كما يمل الطفل درس معلمه الجاف . ولعل بعض ساعات تمر على الانسان في حياته تجعله يفهم هذه المعاني فهماً أعمق من فهمه المعاني العامية . وأجدر هذه هذه الساعات بالذكر ساعة الموت التي يفهم خلالها أسمى معاني الإله وأوسعها .. نعم قد تظهر للإنسان بعض المعاني غامضة إلا أن فني التربية والمنطق الصوري كفيلان في المستقبل توضيحها بوسائل وتحديدها بتعاريف (كالمعاني الرياضية المجردة) بحيث يفهمها كل طالب بلغ من الذكاء درجة معينة كما يفهمها أخص الفلاسفة .

* * *

والخلاصة لم تدخر الوضعانية الفلسفة ولم تمش الفلسفة بدون الوضعانية . فلا بد للإنسان من معرفتين راقيتين متكاتفتين متساندتين تمد إحداهما يد المعونة إلى الأخرى في كل لحظة . وبذلك ينتهي بنا تعريف الفلسفة الأخير إلى ما يلي :

« الفلسفة معرفة لا وضعية تتألف من نوعين من النظريات :

١) نظريات القيم التي تدرس المسائل الانتقادية ومسألة انتقاد المعرفة .

٢) نظريات الميتافيزياء التي تدرس بواطن الموجودات والحقائق المطلقة وتدرس الأسباب القصوى والغايات النهائية » .

ينتج أن المفهوم الأخير للفلسفة (وهو مفهوم أغلب الفلاسفة والمؤلفين المحدثين) يستخرج تعريفه من تاريخ الفلسفة كالمفهوم الوضعي . ولكنه لا يرتكز على حادثة انفصال العلوم فقط بل يرتكز خصوصاً على استمرار مسألتي العلم والعمل من حيث هما معرفة ضرورية ذات وظيفة وعمل ، ذات قيمة وكيان .

٣ — وظيفة المعرفة الفلسفية

أ) الفلسفة والعلم

رأينا كيف يخدم العلم الفلسفة وكيف تقابله الفلسفة بالمثل كما قال كلود برنار . وتتم الآن ما قاله هذا الفزلجاني : « إن الفلسفة تبعث في العلم الحياة والنشاط وتعمل

على استمرارهما » . « والروح الفلسفية الحقيقية هي التي بطموحها السامي تقوده إلى تحري الحقائق الخارجة عن دائرته والوصول إلى منبع الأشياء وأسباب أسبابها » .

ولم يسجل كلود برنار هذا الواجب على الفلسفة إلا بعد أن رآها قد أدته وقامت به حق قيام . فبيكون في منطقه الجديد كان منشطاً لحركة العلم التجريبي . وديكارت في فلسفته الميكانيكية كان باعثاً على نظريات الحركة والاهتزاز في علمي الفيزياء والميكانياء . وسبنسر في فلسفته التطورية كان منظماً لكل اكتشاف حياتيائي . قال غوستاف لوبون : « إن التطور العميق الذي طرأ على العلوم الفيزيائية والتاريخ الطبيعي منذ خمسين سنة إن هو إلا نتيجة لتغير المباديء الفلسفية التي كانت توجه أعمال الباحثين » .

ب) الفلسفة والحياة العملية

الفلسفة كالعلم من حيث ريها غليل الاستطلاع . وهي مثله من حيث تطبيقاتها العملية غير أن هذه التطبيقات تمس الحياة في جميع نواحيها . وحسبها أن يقال عنها « فن الحياة » .

فالفلسفة تنهمك أولاً في إدارة حياة الانسان الصحية . ومن كانت فلسفته صحيحة لا يحتاج إلى الطبيب إلا في أحوال جائية قاهرة .

يحتقر بعض العوام الطب العلمي بفلسفة ذكية . فيقولون إن الله خلق ميزان الإنسان الصحي في جسمه . فمتى جاع أكل ومتى نعس نام ومتى تعب استراح . فاذا خالف ، يكون قد خالف الطب الإلهي . وقد انتبه الطب الحديث إلى بعض هذه المباديء الفلسفية فأرشدته إلى تعديل نظام الحمية بحيث أصبح لايجوز منع المريض عن كل طعام يشتهيه إذا حرم بعضه ، لأن للغريزة وظيفتها أيضاً .

والفلسفة تنهمك ثانياً بإدارة حياة الانسان النفسية . فهي تصحح تفكيره وتهذب عواطفه ونزعاته وتوحي إليه الهدوء والاطمئنان . وقد تجعله سعيداً بنوع من السعادة يؤلف معناها هو في نظرته للحياة وقيم الأشياء والناس اللذات الشريفة .

يحتقر الفلاسفة كثيراً من الاشياء التي يحسبها الناس ضرورية . وهم أمهر من يميز بين اللذة الموقتة واللذة الخالدة . وهم القائلون لو فتش الإنسان عن ألد أعدائه لوجده في نفسه .. وأن سعادته منوطة بارادته .

والفلسفة تنهمك ثالثاً بادارة حياة الانسان الخلقية وعلاقاته بغيره من الناس أي حياته الاجتماعية . فهي بتهذيبها عواطفه وتعقيلها سلوكه وإنمائها نزعاته الشريفة وقتلها

أطاعه الضارة ، تزيح عن طريقه كل عثرة قد يوجدها من يعيشون معه . وكثيراً ما تقف العثرة أمامه عن غير ذنبه فتزيلها بالتي هي أحسن (بالحكمة) .

« كان من أمر سقراط أن تزوج امرأة حمقاء فأساءت عشرته بإنطوائها في تيار الغضب آونة بعد أخرى، وقد اتفق أن جلسا يتحادثان ، فجاءتها ثائرة الغضب كعادتها ، فأخذ يلاطفها ويحاسنها وأخذت ترغي وتزبد حتى كان من أمرها أن دفعت في رجه إناء كان في يدها ملوءاً بمسارة ليمون ، فاستقبل الحكيم هذا الحادث بحكمته وما زاد على أن قال مبتسماً ما زلت أرعدين وتبرقين حتى أمطرتنا » . (عن علم النفس ص ٢٤٢ الجارم وزميله) .

والفلسفة تنهمك رأساً بإدارة حياة الانسان الاقتصادية والعملية بمعناها الخاص . قال شسترتون[1] : « أنا أحد الناس الذين يعتبرون نظرة الرجل إلى الدنيا أهم شيء تجب معرفته عنه من حيث الفائدة العملية . فالملائة قد يهتم في معرفة دخل المستأجر ولكن عنايته في معرفة فلسفته هي أهم بنظرنا . والقائد الحربي قد يعنى في معرفة عدد العدوّ ولكن عنايته في معرفة فلسفتهم هي بيت القصيد على ما نرى » .

أكبر عوامل غرور اليابان الاقتصادي هو رقي فلسفتهم الاقتصادية وأكبر عوامل اتساع الامبراطورية الانجليزية هو اعتناؤها بمعرفة فلسفة الأمم وأكبر عوامل تدهور الأمم الشرقية هو ضعف فلسفتها التي أمست بالية سخيفة مع تغير الأزمان .

والفلسفة تنهمك خامساً بإدارة حياة الأمة السياسية وإنقاذها من أخطارها . فكل حركة تاريخية تسبقها فلسفة تنير لها الطريق ويستعدها زعماء البلاد من حكامها .

.. وهكذا تنهمك الفلسفة في كل حياة . غنيٌ عن البيان حياة الآخرة وعلاقة المخلوق بخالقه والمسائل الميتافيزيائية الأخرى .

١ — شسترتون : Chestreton : Heretics p. 15.

تمارين فلسفية

على الفصل الثالث

١ — تأملات ومناقشات :

١ — إلى أي معرفة ينتمي كل واحد من الأحكام والمحاكمات الآتية :

الساعة ٦٠ دقيقة . — عدد أسنان الإنسان ٣٢ . — الاقليم أثره في النبات والحيوان .

تبدو ساعة اللذة قصيرة وساعة الالم طويلة . — بمقدار ما تجيد فهم المعنى تجيد تفهيمه .

لقد صدقت ماجدولين فيما قالت ، فقد ملها أدوار بعد عامين اثنين من زواجه منها وبرم بها وانتهى أمره معها بما ينتهي به كل زواج تعقده يد الشهوة (المنفلوطي . ماجدولين — ص ٨٠) .

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطيء الهبل (القطامي)

إن النقد الذي لا مقياس له غير ذوق صاحبه يذكرنا بحكاية جحا المشهورة حين قيل له : كم عدد نجوم السماء فقال : عدد شعر رأسي (العقاد ، مطالعات ص ٤) .

تختلف المرأة عن الرجل في تركيب هيكلها العظمي [التشريح] ثم في وظائف الأعضاء [الفزلجاء] ثم في الرد العاطفي [النفسياء] ثم في القابليات الحربية [التاريخ] . . . إذن « يجب أن تختلف وظائفها الاجتماعية عن وظائفه [. . ؟ . .] .

٢ — ما الفرق بين النقد العلمي والانتقاد الفلسفي ؟

— للاجابة على هذا السؤال راجع ص ١٨ وما بعدها حتى ص ٢٢ . ثم راجع ص ٣٢ وما بعدها .

٣ — فسر وفصل الجملة الآتية : نجاح الإنسان (أو الأمة) في الحياة مدين لفلسفته (أو فلسفتها) .

٤ — ابحث عن المباديء الفلسفية التي يرتكز عليها الرسول الاسلامي في لفظ أحاديثه الصحيحة .

٥ — فسر وفصل الجملة الآتية بصفتك شرقياً أولاً ثم بصفتك عربياً ثانياً . « التحرر الفكري قبل التحرر السياسي وإلا فيبقى التحرر السياسي مضطرباً أعمى في أسطع نور مكاناً وأنور عصر زماناً » .

٢ — دراسات ومحاضرات :

١ — تسجيل النتائج التي يمكن استخراجها من تاريخ الفلسفة وتاريخ العلم وترتيبها ترتيباً منطقياً .

٢ — إيجاز تاريخ الفلسفة الإسلامية من حيث مسألتي العلم والعمل .

٣ — تعليقات على كتب الغزالي (معيار العلم ، ميزان العمل ، المنقذ . .) ومقارنتها بكتب كنت نقد العقل . .) وبيان الفرق بين الفيلسوفين وأسبابه .

٦ — أثر الفلسفة أ) في الحركات العقلية ب) في الحركات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . .

obeikandl.com

كلمة اعتذار

إن الحاجة التأليفية اضطرتنا إلى وضع بعض المصطلحات لتمييز المعاني بعضها عن بعض . وقبل أن نذكرها نعتذر للقراء والمؤلفين الأكارم ونصرح لهم أننا نعتبرها موقتة ريثما يتاح للبلاد العربية تأسيس مجمع فاسفي عام يقر المصطلحات إقراراً نهائياً . وفيما يلي ذاكرون أهم مصطلحاتنا :

١ — لقد سبقنا الاستاذ عز الدين التنوخي عضو المجمع العلمي العربي فوضع لفظ الفيزياء Physique على منوال لفظ الكيمياء . فاتبعنا قاعدته ووضعنا الالفاظ الآتية :

بالعربية	بالفرنسية	بالانجليزية
الفزلجاء	Physiologie	Physiology
الحياتياء	Biologie	Biology
النفسياء	Psychologie	Psychology
الاجتماعياء	Sociologie	Sociology

٢ — النسبة من العلوم المذكورة أعلاه تصاغ على نحو ما يلي :
نقول مثلاً : بحثٌ فيزيائي ، كيميائي ، فزلجائي ، حياتيائي ، نفسيائي ، اجتماعيائي . . .

بالانجليزية ← Physical, Chimical, Physiological, Biological, Psychological, Sociological...

بالفرنسية ← Physique, Chimique, Physiologique, Biologique, Psychologique, Sociologique...

٣ — العلماء الاختصاصيون بالعلوم المذكورة يطلق عليهم ما يلي :
الفيزياني ، الكيمياني ، الفزلجاني ، الحياتاني ، النفساني ، الاجتماعاني . . .

بالانجليزية ← Physicist, Chimist, Physiologist, Biologist, Psychologist, Sociologist...

obeikandl.com

وبهذه المصطلحات نستطيع التفريق مثلاً بين المعاني الآتية :

اجتماعي Social اجتماعيائي Sociological اجتماعاني Sociologist ← بالانجليزية نفسي Psychic(al) نفسيائي Psychological نفساني Psychologist .

٤ — لقد سبقنا المربي الكبير ساطع الحصري فوضع لفظ عقلاني Rationaliste وميزه عن عقلي Rationnel فاتبعنا قاعدته واستطعنا أن نميز بين المعاني الآتية :

وضعاني Positiviste ، الوضعانية Positivisme	وضعي Positif ، الوضعية Positivité
انذخالاني Subjectiviste ، الانذخالانية Subjectivism	انذخالي Subjectif ، الانذخالية Subjectivité
اختراجاني Objectiviste ، الاختراجانية Objectivisme	اختراحي Objectif الاختراحية Objectivité

obeikandl.com

بعض الخطيئات المطبعية.

ص	سطر	خطأ	صواب
١١	١	القانوني	القانون
١٦	١	والمنطق	والنطق
٢٠	٢٠	وقد ذهب	ذهب
٢١	٢٢	بالله سبحانه .	بالله سبحانه] .
٢٤	١٦	خارجاً	خارجياً
٣٤	١١	« نقيدها »	« تقيدها »
٤٢	١٧	حين	جهة
٤٢	٢٦	الفنون	الحقوق
٤٣	١	٣ — المفاهيم ...	٢ — المفاهيم ...
٤٦	٢٧	تضيف	نضيف
٥٤	٥	كلا	كلتا
٥٦	١٥	فاز بقوانين	قارنوا بين

obeikandl.com

فهرس الكتاب

ص	
٣	مقدمة الطبعة الثانية
٥	مقدمة الطبعة الأولى
٦	تمهيد : ما هي الفلسفة ؟
	الفصل الأول : المعرفة العامية
٧	١ — نقائص المعرفة العامية
٩	٢ — وظيفة المعرفة العامية
	الفصل الثاني : المعرفة العلمية
١٠	١ — خصائص المعرفة العلمية
٢٥	٢ — وظيفة المعرفة العلمية
	الفصل الثالث : المعرفة الفلسفية
٢٨	١ — خصائص المعرفة الفلسفية
٤٣	٢ — المفاهيم التاريخية للفلسفة
٥٧	٣ — وظيفة المعرفة الفلسفية
٦١	كلمة اعتذار .

obeikandl.com